الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة مُحّمد بوضياف بالمسيلة

كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية

قسم فلسفة

عالم الثقافة و مشكلة القيم في فكر مالك بن نبي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة

❄إعداد الطالب:

- سعود محمد الصالح

❄ إشراف :

- الدراجي زروخي

السنة الجامعية : (2015 م / 2016 م)

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

أتـ قـدم بـجز يـل الـ شكـر والـعر فـان
وكـامـل الامـتـنـان وأسمى عبـارات الـتـقـديـر و الإحـتـرام
إلـى الأسـتـاذ الـمشرف **"الـدراجي زروخي "** الـذي سـاهم
مـعي فـي إنـجـاز هذه الـمذكـرة
وهـذا مـن خلال مـابـذلـه مـن جهـود و نـصـائـح و تـوجيـهـات
كـمـا أنـقـدم جزيـل الـشكـر وكـامـل الـتـقـديـر إلـى
أسـاتـذة قـسم فـلسفـة بـجـامـعـة الـمسيـلـة كـلّ بـإسمـه و
مـقـامـه
ونـشكـر كـذلـك كـل مـن قـدم لـنـا عـلـمـا أو نـصحـا أو
مـعـروفـا
و إلـى كـل صـاحب فـضل فـي هـذا الـعـمل خـالـص الـشكـر
وأخـيـرا و شكـري و امـتـنـانـي خـاص إلـى أولـي الـعـقـل و
الـحكـمـة و الـرشـاد فـي هـذه الأمـة الـطّـاهـرة.

الإهــداء

أهدي بحثي هذا إلى إخوتي : علي, عبد الكريم , سليم , ناجي, عماد , الطيب, هاني, عبد الستار

و أخص بالذكر و العرفان: علي و عبد الكريم اللّذين كان لهما الفضل الكبير في إتمام دراستي وحصولي على شهادة الماستر في الفلسفة

و أتمنى من العلي القدير أن ييسر لهما طريق النجاح و التوفيق و الهداية

فالثقافة تستطيع أن تمنحنا اللحظات الممتعة, إذ توحي إلينا

أن نُنْشِد أحياناً مُجتمعين, وأن نرقص مُجتمعين, ونضحك مُجتمعين, والآداء الحسن لذالك كله ظاهرة مشجعة وجمالية ينبغي عدم الاستخفاف بها.

ولكن دورها الأساسي أن تُعلمنا العيش المشترك والعمل المشترك وخاصة الكفاح المشترك.

هذه هي وظيفتها الاجتماعية الأساسية, ولن نتلهى بإظاعة الوقت في إيجاد تعريف لمفهوم الثقافة.

المبحث الأول : المرجعية الفكرية لمالك بن نبي

يعتبر القرن الواحد والعشرين قرنا قد شهد العديد من التغيرات و المستجدات الجديدة، التي عرفها الإنسان في هذا القرن في جميع الميادين السياسية، و الاقتصادية، و الاجتماعية،و الثقافية، والدينية.

ولعل الناظر إلى هذه التغيرات ،يجد أنّ الخاسر الأكبر الوحيد في هذا الوضع العام هو الإنسان و خاصة الإنسان المسلم أو نقول بالأحرى إنسان العالم الثالث .

و إنّ المتتبع لحركة هذا الوضع المزري ، نجد أن هناك عدة أسباب أوصلت هذا العالم إلى هذه المشكلة العويصة، فأصبح المتخصصون في هذا المجال ينادون بحلول للخروج من هذه النكسات التي حلت بهذا العالم و ما يزيد الجرح أَنّ هذه الدول تملك إسلاما شهد له القاصي و الداني بمدى قوته و حركيته و مدى صلاحيته في كل وقت و في كل زمان ، إلا أن الحاملين لهذا الدين أناس فشلة.

فأصبح رجال الدين ينادون بحتمية الحل الإسلامي، ونادى المتخصصون في مجال الاقتصادي برفع الاقتصاد و محاربة البطالة و الغش، و رفع رجال الثقافة شعارا بازدواجية الثقافة لعلها هي السحر الذي يبعدنا من هذا المرض.

إلا أنه للأسف بقى الإنسان يعاني من وجعه و من مرضه، ولا نستطيع أن نقضي أو على الأقل أن نقاوم هذا المدّ الجارف، إلا بالرجوع إلى طريق واحد، وهو طريق التفكير الفلسفي، بمعنى الفلسفة ولأنه و كما علمونا أساتذتنا أنه متى وجدت الفلسفة تكون الحضارة، ومتى وجد الدين أو الثقافة أو الاقتصاد لا يمكن أن تتوفر هذه الحضارة، و يمكن بلغة الحتمية أن يكون هذا صحيحا و هو ما يؤكده الواقع المعاصر.

و من المؤكد أن هذا النوع من التفكير، قد أخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، ومن حالة الفوضى إلى حالة النظام، و من طغيان الاستبداد إلى نعيم العدالة و الحرية، و من حالة التخلف إلى وضع أكثر تقدما وتطورًا.

و نجد العديد من المفكرين الذين سلكوا هذا المسلك سواء في العالم الغربي أو في العالم العربي، حيث نجد أن هؤلاء المفكرين قد أرادوا أن يقدموا حلولا لجميع المشاكل التي يعاني منها الإنسان، لأن الفلسفة هي الوسيلة لمنح الحلول لا لمناقشة المشاكل، بل شعارها هي تقديم الدواء بالمعنى الصحي في وقت المناسب و في المكان المناسب.

إلاّ أن هناك بعض المفكرين بقيت فلسافاتهم حيز التجريد، وهي في قفص المثالية، لم تنزل إلى مكان الداء أي الواقع، و بعض الفلسفات الأخرى بقيت هي الأخرى في فوق واقع الإنسان فقتلت قيمه و أنهكت وازعه الديني و الأخلاقي، أمّا الفكر العربي فنجد أن بعض المفكرين قد تزعموا أن الحل يكمن في التراث و أن لا بديل عنه ورأى

البعض الأخر أن الحل يكمن فقط في تتبع ما وصلت إليه الحضارة الغربية وأن نسلك مثلها و هذا ما نطلق عليه بالمعاصرة.

ولكن إن الباحث عن الحقيقة، في الفكر العربي خاصة و – هذا ما نعنيه – نجد أن هناك مفكرين قد حاولوا محاولة عميقة، بجمع بين روح الأصالة و عطور المعاصرة، و إعطاء مناهج فعالة لها من القدرة الكافية لمواجهة التحديات الجديدة .

ولعل من أبرز هؤلاء المفكرين نجد المفكر الجزائري ((**مالك بن نبي**)) هذا المفكر الذي حاول أن يقدم حلولا و أدوية فعّالة تجمع بين الروح الفكرة الدينية، وبين عمق المنهج التجريبي، و بين عصارة العلوم و خاصة العلوم الإنسانية و الاجتماعية، هذا المفكر الذي لم يكن لا من بين التيار التراثي المتحجر، و لا من رّواد التجديد الذين تنكروا لدينهم و لهويتهم بل هو من الذين حاولوا الجمع بين الأصالة الإسلامية و بين ما هو جديد عبر سلسة كانت عنوانها دليلا على محتواها و هي ((**سلسلة مشكلات الحضارة**)).

ضمن هذا المنظور سنحاول التعرض إلى هذه الشخصية مبرزين أهم معالم حياته، و أهم العوامل التي أثرت في تكوينه، و منهجه في التفكير الذي ميزه عن غيره ، لأنه:

1- لا يمكن فهم فكرة أو نظرية مقطوعة الصلة عن إطارها الاجتماعي و السياسي و الاقتصادي و الثقافي التي نشأت فيه.

2- إن المفكر أو العالم هو نتاج لوسطه الاجتماعي (**ابتداء من الأسرة**)، و كذا اوضاعه الاجتماعية، الاقتصادية و الدينية، و من ثمة يتعين علينا البحث عن أصول الأفكار و النظريات ليس في عقل المفكر أو العالم و إنما في المعطيات التي تميزت بها المرحلة التاريخية التي عاش فيها.

ولد مالك بن الحاج عمر بن لخضر بن مصطفى بن نبي في أحضان أسرة كريمة متواضعة، في الفاتح من شهر جانفي 1905م بمدينة قسنطينة[1]، إحدى مدن الشرق الجزائري، في زمن يعد فيصلا يبن الماضي و المستقبل

[1] عمار طالبي : مالك بن نبي و مشلكه الحضارة, مجلة الثقافية, الصادرة بالجزائر عن الوزارة الإعلام والثقافة, العدد 18, 1973 م ص 9.

حيث يقول: << **الاتصال بالماضي عن طريق آخر من بقي حيّا من شهوده، و الإطلال على المستقبل، عبر الأوائل من رواده** >>[1] .

بدأ مالك بن نبي رحلته الدراسية بالكتاب، ثم سرعان ما انتظم بالمدرسة القرآنية، ليحافظ على دراسة في كليهما إلى أنه فشل في التوفيق بينهما خصوصا أمام ضعف المناهج و الوسائل في الكتاب،فانقطع عنه ليبقى منتظماً في المدرسة الفرنسية إلى أن تم دراسته الإعدادية بالتفوق.

عاد بن نبي إلى قسنطينة لمواصلة دراسته حيث دخل إلى المدرسة الرسمية التحضيرية و هنا بدأت مرحلة جديدة من حياته، بحيث انفتح وعيه الديني بحيث تلقى دروساً في السّيرة و العقيدة على يد الأستاذ مولود بن الموهوب*[2] هذا يعني أن مالك بن نبي كان شخصية تتقبل التوجيهات والنصائح و كما أنه كان طالب علم يجالس العلماء ويحاكيهم حيث يقول : << **و قد تولى الشيخ مولود بن موهوب جذب أفكارنا و عُقولنا إلى خط تلك الحركة التقليدية القديمة** >>[3].

و من جهة اخرى كان هناك أساتذة فرنسيون يؤسسون في عقله المنهج الديكارتي حيث يقول : << **فمن جهة عامة كان اساتذتنا الفرنسيون يصبون في انفسنا محتوى ديكارتي** >>[4].

هذا يعني أن مالك بن نبي أيضاً كان شخصية منفتحة العقل، و له أبعادًا متعددة فكان مفتحاً على جميع الثقافات سوآء في السيرة أو الفقه لأنه كانت هذه المواضيع تحدد له تصورات لبعض المفاهيم، كما يطلع على الثقافات و الأفكار الأجنبية، كما أن المحتوى الذي تأثر به مالك بن نبي في هذه المدرسة هو المحتوى الديكارتي أي المنهج الديكارتي المعروف، بعمقه في التحليل و استعماله للإحصاء هذا ما سوف يؤثر عليه في عملية تحليله للمشاكل التي يعاني منها إنسان مَا بعد الموحدين، بأن يبرز بعملية التحليل جميع ما يعاني منه الإنسان .

و في سنة 1930م ذهب مالك بن نبي إلى فرنسا قصد مواصلة الدراسة الجامعية فحاول التسجيل في معهد الدراسات الشرقية بباريس، لكنه لم يسمح له بذلك فدخل معهد الدراسات اللاسلكية ليتخرج منها مهندسًا

---

(1) مالك بن نبي : مذكرات شاهد القرن الطفل و الطالب, دار الوعي,ط1, الجزائر, 2013 م , ص15.

* و هو رجل من رجال الإصلاح في الجزائر كان يصحح بعض المفاهيم و التصورات لمالك بن نبي بالرغم من أنه لم يحتويه.

(2) بوراس يوسف: الفكر السياسي عند مالك بن نبي,دار هومه, الجزائر, 2013 م, ص19.

(3) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن,ص 65.

(4) نفسه: ص 65.

كَهْرَبَائِيًا سنة 1935 م، و لقد كانت الساعات التي يقضيها في الورشة لم تكن كما يقول << **مُجَرد لعب، بل كانت ممتلئة بالشعور الوارد على دِين جديد و لم يكن أيضا تخلو من ملاحظات و بواكير لتفكير اجتماعي بدأت تخامر عقلي فبينما تلك الأدوات البسيطة في يدي أشعر بأنها ليست لمجرد اللعب بل هي دلائل على مقدار تطور المجتمع، لأن المجتمع البدائي آلته اليد و الإصبع**>>[1].

إنّ هذا التخصص الكهربائي الذي درسه مالك بن نبي قد حَرّك فيه هاجس البحث و التفكير لسبل تطور المجتمع و معرفة أسباب تخلفه وَ أزمته الحضارية، هذا يعني أنّ تخصصه العلمي كان له دوراً إيجابيا و فعّالاً في رؤيته للمجريات العالمية و الإقليمية و حتى الوطنية.

و في سنة 1935م تزوج بفتاة فرنسية اعتنقت الإسْلام و سمت نفسها خديجة و كانت بطبيعة الحال له سندًا قويًا في التفكير فيما يخص مسائل عديدة، فهو في هذا الصدد يقول: << **كانت الحياة المنزلية تبدأ بالنسبة لي عندما أعود من المدرسة، فآخذ استراحة قصيرة و أتجاذب الحديث مع خديجة حول القضية الجزائرية أو حول الدين فتبدي رأيها في موازنة الإسلام و المسيحية بطريقة تفيدني أحيانا، أو تلفت نظري إلى أشياء لا تفقد أهمية لمن لا يحتقر الشيء البسيط لبساطته**>>[2]كما لعبت زوجته دورا كبيراً في تشكيل ذوقه الفني و الجمالي كما أنه حصنته أخلاقيا ووفرت له الجو العائلي .

و في عام 1936م انعقد المؤتمر الإسلامي و الذي كان له وقع شديد على مالك بن نبي الذي كان يرى بأن وقت الانخراط في العمل السياسي مَبنياً على طلب الحقوق، في الوقت الذي يجب فيه على الحركة الإصلاحية مُوَاصَلة خط النضال في طريق القيام بالواجبات، بل يذهب مالك بن نبي أكثر من ذالك و هو أن العلماء لم يكونوا في المستوى الوعي الحضاري و السياسي الذي يخولهم إدْرَاك خطورة الموقف[3] .

حيث يقول: << **فالظروف السانحة وضعت العلماء أمناء على مصلحة الشعب فسلموا الأمانة لغيرهم، لأنهم لم يكونوا في مستواها العقلي و سلموها لمن وضعها تحت أقدامه ليكون سلماً يصعد عليه للمناصب السياسية**>>[4].

---

[1] مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن, ص274.

[2] نفسه: ص274.

[3] يوسف بوراس : الفكر السياسي عند مالك بن نبي, 22.

[4] مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن, ص368.

و يقول أيضاً في هذا الصّدد: << **إنها تستهدف أهدافا سامية، دون أن ترسم خطتها و دون أن تحدد وسائلها**>>[1].

هذا يعني أن مالك بن نبي كان يريد أَنْ تكون الحركة الإصلاحية، لها أهدافاً و مناهج تقوم عليها لكي تبلغ إلى الأهداف التي تسموا إليها، ولكي لا تبقى أفكارها ميتافيزيقية إن صحّ التعبير، فلا بدّ من ركائز واقعية ليقوم عليها و هذا ما يلمح إلينا أن شخصيته كانت تجمع بين ما هو نظري و علمي في آنٍ واحدٍ. و هذا كان دأبه في نظرياته الفلسفية و الفكرية.

ولقد بقى مالك بن نبي موزعاً بين فرنسا و الجزائر، مُحاولاً التوفيق بين تدبير عيشه و مزاولة نشاطه الثقافي الإصلاحي، فلقد كانت ثقافته من أجل الإصلاح و توعية الشعب و النهوض به ولم تكن ثقافته من أجل ثرثرة لمجموعة أفكارٍ.

بحيث كان يخلف الشيخ **العربي التبسي*** في الحديث عند غيابه، وذلك في نادي الشبيبة الإسلامية في تبسة،وهذا عند تواجده بالجزائر الى غاية الحرب العالمية الثانية،حيث لم تتوقف ترصد دوائر الصراع الفكري له، فقد كتب في ظل هذه الأوضاع باكورة أعماله و المتمثل في كتاب الظاهرة القرآنية.

و بعد انطلاق الثورة شعر مالك بن نبي بالتضييق الكبير عليه من طرف سلطات الاستعمار الفرنسي، كما أدرك ضرورة أن يساهم في الثورة ، وذالك بأن يؤرخ لها من الداخل كشاهد عيان، فاسْتغل انعقاد مؤتمر باندونغ و ألف كتابه فكرة الإفريقية الآسيوية على ضوءِ مؤتمر باندونغ[2].

فقد كان مالك بن نبي حاملاً لِوَاء الإصلاح وهموم أمته في كل الأحوال، فلم يكن ذالك المثقف الذي كان يكتب في بيته، بل كان مثقفا يعيش همّ أمته و هذا ما يدل عليه إنتاجا ته الفكرية و أعماله.

و سافر مالك بن نبي إلى مصر و رَاسل قيادة الثورة بغرض دخول إلى الجزائر لكن أهمل طلبة، و رغم ما خلف هذا الأمر عليه من أسى، فإن عزيمته لم تفتقر إذ في ظل هذه المآسي التي كان يعيشها الشعب الجزائري كان في القاهرة يقوم بأنشطة مع المفكرين و الساسة و المنظمات.

---

(1) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن, ص376.

*العربي التبسي : هو أحد المشايخ مدينة تبسة تأثر به مالك بن نبي في طريقة إصلاحه و توجيهه.

(2) العابد ميهوب: الفكر التربوي عند مالك بن نبي, رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة محمد خضير, بسكرة,2014,ص96.

بعد الاستقلال عاد مالك بن نبي إلى الجزائر سنة 1963 ،و شعوراً بمكانته العلمية و الفكرية، عينته القيادة مدير للتعليم العالي سنة 1963 م كما كلف بإنشاء مركز للتوجيه الثقافي لكن لظروف عديدة تتعلق بالبيروقراطية و إهمال التوجيه الثقافي من السلطة الجزائرية و لعدم شعورها بأهمية فقد استقال من منصبه، ليتفرغ للعمل الفكري. فنظم عدّة ندوات و محاضرات و شارك في مؤتمرات في أقطار العالم الإسلامي، كما اجتمع من حوله نخبة من عدّة أقطار إسلامية تنهل من فكره، و تحمل نظرياته الإسلامية لتذهب بعيداً في أرجاء العالم الإسلامي، فأصبح بذلك مدرسة جديدة في الفكر الإسلامي المعاصر، إلى أن وافته المنية في 31 أكتوبر1973م تاركا وراءه تراثاً فكريا هائلا بدأ يدخل الجامعات الإسلامية و الغربية ليدرس ويحلل و يرسم نسقا جديداً في تفكير الإنسانية[1].

المبحث الثاني :العوامل المؤثرة في شخصية مالك بن نبي

أولا : العامل التربوي

لا يستطيع المفكر أن يصل إلى اتجاهات و مواقف فلسفية معينة من دون وجود عوامل و مؤثرات تعمل على تشكيل و صقل آرائه بتجربة الحياة و العوامل المحيطة به، فكل من البيئة و المدرسة و المجتمع، كل هذه المؤسسات ساعدت بن نبي في تكوين نظرياته و مواقفه في الإصلاح و في النهضة و في الثقافة و في التربية، و لكن كيف ساعدت هذه العوامل مالك بن نبي؟ و ما هي أهم هذه العوامل و المحفزات؟

نستطيع أن نقول أن هناك عدة عوامل و مؤثرات في تفكير أي مفكر أو عالم و لكن سوف نركز على أهم هذه العوامل لكونها شكلت تأثيراً مباشراً، و هي العامل التربوي و الاجتماعي والعامل الثقافي الفكري، بحيث نجد أن هذه العوامل ساهمت و بشكل كبير في تكوين العقل الإصلاحي لفكر مالك بن نبي.

و نقصد بالعامل التربوي هو العامل الذي يحصن المفكر منذ ولادته، ولعل الكثير من العوامل الأخرى مثلا كالعامل البيئي أو الاقتصادي لا يؤثر مثل ما يؤثر هذا الظرف التربوي الذي هو الممهد الأول للأفكار التي يتلقاها أي باحث أو طالب. بحيث تشكل النشأة التربوية أو إن صحّ التعبير الأسرة التي هي الممهد الأول للتعاليم الأخلاقية و الدينية لفكر مالك بن نبي، بحيث شكلت الأسرة لديه هي النواة الأولى و القناة الأولى التي تعلم فيها جميع القيم و في الحقيقة الأمر تلعب الأسرة دوراً في التنشئة بحيث نجد في واقعنا المعاصر أنّ الأسرة قد ألفتت ظهرها للتربية و أصبح دورها هامشيا إن لم نقل معدوماً تماما، فالأسرة هي التي بنت الجانب الرُوحي و الأخلاقي لدى مالك بن نبي

[1] قاسم أحمد الشيخ بلحاج: نظرية الحضارة عند المفكر مالك بن نبي,دار الجاحظية, 1998م, ص9.

بحيث كانت جدته لأمة الحاجة "**زوليخة**" هي المدرسة الأولى التي تكون فيها حسه الوطني، و تعاليم التربية الصالحة حيث يقول هو : << **و كانت هذه الأقاصيص الورعة تعمل على تكويني دون أن أدري، فمنها عرفت أن الإحساس، في مرتبة عُليا من الخلق الإسلامي، وإحدى حكاياتها في الإحساس جعلتني أنا إبن السادسة أو السابعة من عمري أقوم بعمل ربما كان على ما اعتقد أسمى ما قمت به في حياتي** >> .

زيادةً على ذالك كانت جدته مالك بن نبي أي زوليخة تعطيه أخلاقا مشحونة بالقيم وذلك عن طريق الحكايات و القصص وفي هذا يقول: << **وفي ظهيرة يوم الجمعة أخذت نصيبي من الرفيس و أخذت أقضمه بنهم ولذة و فجأة سمعت بباب الدّار سائلا: أعطوني من مال الله و لم أكن عندها أكلت من فطيرتي أكثر من النصف و مع ذلك بادرت بإعطائها له عندما تذكرت واحدة من حكايات جدتي عن الإحساس و ثوابه** >> [1].

إذاً لقد شكلت جدته مدرسة في تلقيه لمختلف القيم بحيث كان دورها كبيراً في تنمية الجانب الأخلاقي لسلوكه، و هذا يعني أن مالك بن نبي كان من بين الذين نشأوا في تربية صالحة بحيث يشهد أن حتى والده كان له مواقف ضد الاستعمار الفرنسي و هذا ما ساهم أيضا في تنمية الحس الوطني لمالك بن نبي و هذا يشكل لديه مختلف القيم الأخلاقية التي ينادي بها فيما بعد في مشروعه الإصلاحي، إذن نشهد أن الأسرة قد لعبت دوراً في تشكيل الجانب الأخلاقي و الفني لدى مالك بن نبي، و لكن هل الأسرة وحدها كفيلة بتحقيق و تنمية الجانب الروحي لدى الإنسان ؟

ثانيا: العامل الاجتماعي

بطبيعة الحال أن الأسرة كمؤسسة وحيدة لا تستطيع أن تحافظ على الكيان الأخلاقي للإنسان، فنجد أن المحيط الاجتماعي الذي عاش فيه مالك بن نبي قد عمل على تشكيل نفسيته بحيث تلعب طبيعة المحيط بين قسنطينة و تبسة، هو السبب الذي جعله يحرص على التمسك بالأصالة و المعاصرة في آن واحد بحيث يقول : << **ففي تبسة كنت أرى الأمور من زاوية الطبيعة و البساطة أما في قسنطينة فقد أخذت الأمور و الأشياء من زاوية المجتمع و الحضارة واضعاً في هذه الكلمات محتوى عربياّ و أوروبياً في آن واحد** >> .[2]

فمن طبيعة المكان و المحيط الاجتماعي كان مالك بن نبي يبني نظرياته و أفكاره، فكان لا يفصل بين المحيط و الطبيعة الخارجية في طرحه الفلسفي . فعند زيارته لتبسة ، كان يري أن هذه المدينة مازالت تحافظ على عاداتها و

[1] مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن, ص19.

[2] نفسه: ص36.

تقاليدها ، و مازالت طبيعتها بريئة، فيها طبيعة الإنسان الأصيل تتحكم فيها، و لكن في قسنطينة من زاوية أخرى مغايرة فبدأ المجتمع يتحرك و يتطور و البيئة متغيرة بين المدينتين، هذا يعني أن المنهج سوف يتغير بتغير المكان و حتى لا نستبق الأمور نجد أن مالك بن نبي في هذه الملاحظة و الوصف الخاضع للتجربة، قد أشار إليها ابن خلدون و هذا عندما وضع لكل أقوام صفات خاصة بهم على حسب المكان الذين يعيشون فيه.

و بذالك كان ابن خلدون قد يعطي هو أيضا أهمية للمحيط الاجتماعي و البيئي خارج عن الإنسان دورا في أخلاق البشر و صفاتهم الأخلاقية فلكل محيط أناس. حيث يقول ابن خلدون << **فأنا أجد أن أهل الأقاليم المخصبة العيش، الكثيرة الزرع و الضرع و الفواكه و الآدم، يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم و الخشونة في أجسامهم و هذا شأن البربر المقمسين في الآدم و الحنطة مع المتقشفين في عيشتهم المقصرين على الشعيرة و الذرة مثل المصامدة منهم و أهل العمارة و السوس فنجد هؤلاء أحسن حالا في عقولهم و جسومهم** >> [1].

فنلاحظ أن ابن خلدون كان يلاحظ من طبيعة الإقليم و ما يوجد فيه من أكل وزرع و نبات يؤثر في السمات الأخلاقية و البيولوجية للإنسان بتلك المنطقة ، وبهذا كان ابن بني هو أيضا يلاحظ الأمور ويراقبها من خلال الزاوية الطبيعية التي تساهم في تشكيل شخصية الإنسان هنا نجد أن مالك بن نبي قد تأثر بابن خلدون في فكرِهِ الحضاري .

وكذالك نجد أن مالك بن نبي في مشروعه الحضاري يستعمل مصطلحات هي من واقع حياة الناس و من محيطهم الاجتماعي و هذه أمثلة تدل على ذلك :

الزردة: و هي عبارة عن و ليمه يقيمها رجال مع بعضهم لمناسبة حفل معين.

الدراويش: يقصد بهم رجال السياسة الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً في قراراتهم، وهم في الحقيقة الأمر لا يفهمون شيء (**وهذا في نظر مالك بن نبي**). والزوايا و الجزرة ،و غيرها من المصطلحات التي هي من صميم المحيط الاجتماعي و هي التي كانت تعطي نضرة عن الواقع الجزائري و صوره على مدى تفكيره ووعيه أو مدى ضعفه .

فكان بذلك مالك بن نبي يراقب هذا الوضع الاجتماعي و يحاول إعطاء وصفه طبية ناجحة لإخراج المجتمع الجزائري من هذا الوضع.

[1] ابن خلدون: مقدمة تحقيق لحامد أحمد الطاهر, دار الفجر للتراث, القاهرة ,ط2 ,2010 , ص118.

و نجد أن المحيط العالمي أيضا لعب دوراً في إعطاء لمسة لفكر هذا لفيلسوف، بحيث نجد أن النزعة الاستعمارية التي تنتهجها الدول الغربية كانت تؤثر عليه، بحيث كان يرى أن هذا الاستعمار هو دخيل على هذه الشعوب و أنه سوف يقتل الشخصية العربية في مقوماتها و مبادئها، فمالك بن نبي كانت له في هذا الوضع فلسفة الاستعمار وهذا نابع عن السياسات المتبعة من طرف الدول الأكثر قوة، فوضع مجموعة من المناهج التي يجب على الإنسان أن يتبعها لمجاوزة الاستعمار ومحاولة التغلب عليه فكريا، لأن خروج الاستعمار لا يعني ذهابه و هذا لا ينتج عنه استقلال، بل نقصد بالاستقلال الفكري الذهني الذي يُعيد للإنسان كرامته وأخلاقه، وبحضور الوعي يعني غياب الاستعمار،وبغياب الوعي يعني حضور الاستعمار في أذهاننا حتى و إن لم يكُن موجودا في بلادنا.

و أما في المحيط الوطني، فلقد كان مالك بن نبي يراقب و يتابع حال الأمة الجزائرية و خاصة حال الطبقة الإصلاحية ،فكان دائما يحاول أن يعقلن هذه الحركات التي تعمل على محاربة الاستعمار فكان دائمًا يضع المناهج و الوسائل لتطبيقها، فلم يكن يوماً يتكلم من دون أن يضع الأبعاد و الأهداف المسطرة من أي حركة يريد القيام بها لذلك كانت جميع المؤسسات الوطنية والإقليمية يحاول أن يجعلها قوة ضاربة في تناسقها و تماسكها، و لذلك وفي هذا الوضع اقترح فكرة توحيد العملة الاقتصادية،إن دلّ هذا إنما يدل على فهمه الكامل للمشروع الحضاري الذي يريد إخراج العالم الثالث من هذه التخبطات الاقتصادية و الفكرية و الاجتماعية و هذا ما أطلِق عليه فكرة الآفروآسوية

ثالثا: العامل الثقافي

و يقصد بالعامل الثقافي مختلف القراءات و المطالعات و المناقشات التي ساهمت في تكوين فكر لمالك بن نبي لأنه من طبيعة الفكر الفلسفي، أنه فكر لا يمكن أن يقوم بلغة الوجودية –إن صح التعبير– هكذا ،إنما لابُد من إرهاصات ثقافية و فلسفية و تبعث الدهشة و البحث و التأمل لدى عقل المفكر.

فمن الكتب مثلا التي تعتبر موجهة لفكر مالك بن نبي كتاب << **الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق**>> ل أحمد رضا و << **رسالة التوحيد**>> للشيخ محمد عبده، حيث يقول مالك بن نبي: << **لقد رسم لي كتاب (أحمد رضا) مزودًا بالشواهد الكثيرة بهاء المجتمع الإسلامي في ذورة حضارته، وكان ذلك معيارًا صحيحاً نقيس به البؤس الاجتماعي في العصر الحاضر، أمّا كتاب (محمد عبده) فقد أعطاني مستنداً للحكم على فقره اليوم**>>.[1]

[1] مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن , ص66.

فالكتاب الأول لأحمد رضا مكنه من خلال الشواهد الكثيرة التي تضمنتها الكتاب، من التعرف على صورة المجتمع الإسلامي المثلى، و هو في قمة العطاء الحضاري، و كان بالنسبة إليه معياراً هاماً يمكن من خلاله قياس أزمته في العصر الحاضر، أما الكتاب الثاني فقد أعطاه و كشف حالة الفقر الكبير الذي يعيشه هذا الفكر اليوم .

بمعنى أنّ هذا ما نلمسه في المنهج الفكري لمالك بن نبي، فكان يقارن لكي يكتشف مكمن المرض ويحاول رمي السهم على المرض نفسه و كذلك نجد كتاب <<**أم القرى**>> لعبد الرحمان الكواكبي قد كشف له عن << **روح جديدة متوثبة بدأت تسري في جسم الأمة الإسلامية رغم أنه خيالي، و لكنه أثره في نفسي كان عميقاً**>> [1].

أما عن الكتب الفكرية التي بلورت فكرة الحضاري، خاصة في موضوع فلسفة التاريخ نجد كتاب <<المقدمة>> لابن خلدون، و كذالك نجد مالك بن نبي قد كان مهتماً بالجانب الأدبي حيث يقول:<< **كانت كتاب المنفلوطي النظرات و العبرات قد أثارت فينا الكثير من التنهيدات**>> .[2]

وهذا ما نلمحه في فكرة الحضارة عند مالك بن نبي و هذا في نشأتها و في أسبابها و نتائجها و في كيفية سقوطها و تحطمها أي في أطوارها الثلاثة، كما طالع مالك بن نبي في فترة مبكرة من حياته << **مروج الذهب**>> للمسعودي.

ولم يقتصر للمطالعة فقط على الكتب بل امتدت إلى الجرائد و هذا إن دّل على شيء إنما يدُل على حرصه على المطالعة و سِعَته لكل الأفكار أينما كانت و سوف نذكر بعض الجرائد التي طالعها مالك بن نبي على سبيل المثال لا الحصر و هي :

جريدة النجاح لصاحبها السامي إسماعيل، وصحيفة الإقدام للأمير خالد التي كان لها دوراً في تفتح مالك بن نبي حول وضع و معاناة الفلاح الجزائري و جريدة الشهاب لابن باديس، التي ساهمت في بلورة فكره الإصلاحي.

أما في الجانب الثقافي الآخر فنجد أن مالك بن نبي كان ملمًّا لجميع الثقافات بداية من الثقافة اليونانية إلى الثقافة الغربية بحيث قرأ كتاب التلميذ "**لبيار بورجي**" و الذي أخرجه من عالم الأوهام و السذاجة كما يقول هو كما كانت كتب "**جون ديوى**" تعرّف مالك بن نبي الطابع العلمي الذي تميزت به الفلسفة الأمريكية، و تعرف على عمق التفكير النفعي و التجريبي لهذه الفلسفة و هذا ما تأثر به في محاولة لبعث الفكر العربي من جموده إلى حركته، و قرأ

---

(2) نفسه: ص66.

(3) نفسه: ص68.

لـ"**نيتشه**"هكذا تكلم زرادشت كما اطلع على دراسات "**آرنولد توينبي**" و " **شنبلغر**" حول موضوع الحضارة كما اطلع لكل من "**هيغل**" و"**كارل ماكس**" وهذا فيما يخص فكرة الجدلية و الحركية للحضارة.

و كما كانت لبعض الصحف الفرنسية أثرها البالغ و منها الإنسانية السارية التي نبهته إلى الوضع الاستعماري في أبشع صورهُ.

ونخلص إذاً أن فكر مالك بن نبي كونته مجموعة من العوامل المختلفة فلم يكن بمحض الصدفة و إنما كانت هناك عوامل أسرية و اجتماعية وأخرى ثقافية ساهمت في بلورة فكره ولكن المتأمل في فكر مالك بن نبي يجد أن هناك شيء مميز فيه هو شيء آخر، بحيث نجد مفكر بسيط يستطيع تكوين فكر فلسفي في ظل هذه العوامل السالفة الذكر، فما هو السَّر وراء هذا الفكر؟ و ما هو الشيء الجديد الذي أتى به شاهد القرن؟ و هذا ما سوف نبينه في المبحث الثالث.

المبحث الثالث :منهجه في التفكير

إن الناظر إلى فكر مالك بن نبي يجد أن جميع الأفكار، كانت تحت حيز واحد لها هدف واحد، و هي تهفو إلى أن تغير الإنسان من إنسان يعيش هكذا الى إنسان يفهم ويعي رسالته وهدفه، حث قال عمر مسقاوي:<< **تنطلق أفكار بن نبي لا لتضيف في المجتمع الإسلامي معرفة جديدة بالفقه، أو علمًا مستخلصا من تجارب الحضارة الحديثة،بل لتنظيم هذه المعارف في مفاهيم تربوية تسير بالإنسان خطوة متقدمة فهو يطرح الإسلام كملهم لقيمنا، و قادر على استعادة دور الإنسان مبررا من نقل الحضارة الإمبراطورية، وهو يري أن الإسلام لا يقدم ككتاب، و إنما كموقع اجتماعي يسهم بشخصية في بناء مصير الإنسانية**>>.[1]

إذاً فأفكاره كلها جديدة المعنى أنّه لم يكن من بين الذين يرون أن مشكلة الإنسان في دينه أو فقهه أو في هذه التصورات و المفاهيم الدينية، أو في الذين يرون أنه يجب على أن نركب روح الحضارة الغربية، فهو يري أن الحل في المنهج أي في العلاقة التي تربطنا بالإسلام، أو بالأحرى بالدين، فالمنهج يجب أن نغيره بل علينا أن ننزعه من أذهاننا هذا المنهج المتزمّت المتحجّر، المغَيب عنه العقل،بل المنهج الذي انتهجه مفكرنا هو منهج ذو فاعلية يتحرك و ينفعل لكي يبّني و يُطوّر.

[1] بشير ضيف الله: فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي, 2005,ص 26.

و لقد عرفنا في حياة مالك بن نبي أنّه درس تخصص كهرباء<< **فهو مهندس كهربائي ساعده تكوينه على هندسة عالم الأفكار و النفوذ إلى أغواره، و كما أن الكهرباء تفيد الإضاءة و الإنارة من ناحية فإنها من ناحية أخرى تعرّض الأشخاص إلى مخاطر الالتهاب والاحتراق و القتل موروثة الأضرار و الظلام الدامس** >>[1].

و بذلك أدرك مالك بن نبي أن المعركة الحقيقية هي معركة فكرية قبل أن تكون أي شيء آخر فالمعركة مع كل من هو حولنا هي معركة و صراع أفكار فكلما كانت الأفكار قوية، صامدة، متحركة، كان الإنسان قويّا صامدًا متحركاً و كلما كانت الأفكار ضعيفة خامدة، ساكنة كان الإنسان، ضعيفا، خادماً، ساكنًا<< **فالأسلاك هي بمثابة الأفكار، و الشحن بمثابة الحوافز و التيار بالاتجاهات الفكرية أو الصراع الفكري و الإضاءة مثلا بالفعاليات،و الحقل الكهربائي بالحقل الفكري، و الفواصل العازلة بقواعد الصراع** >>[2].

إذاً هذه العملية التحليلية للأفكار مالك بن نبي فكل فكرة لم تكن إلاّ من روح العمل و التجربة المهنية، وهذه السّمه التي لا تزعزع الفكر لأنه متى كان قواعده هشه أكلته الأفكار التي تملك الرصانة وهذه هي ميزة الفكر الغربي فنجد أن المفكر فكره خاضع للتجربة الحياتية و إلى التخصص العلمي وهذا ما جعل فكرهم ينهض بالإنسان بل يغير الإنسان حتى في هيكلته،أما عن الفكر العربي فنجده الآن هو في صفوف المكتبات لأنّه فقد أهمّ صفة و هي الواقعية في الطرح و التخصص في الأفكار.

و أما عن الجراحة و التشريح فقد كان يمارسها في ميدان متشعب عصّي للغاية، تارة على الأحياء والأموات، وتارة على الحضارات الزاهرة و الحضارات الآفلة و أخرى على الأفكار الميتة و الأفكار القاتلة و على الاستعمار و قابلية الاستعمار و لا جرم أن جراحة الأبدان أيسر بكثير من جراحة الأفكار و تشريحها فجراح الأبدان يمثل أمامه الأبدان فيحاول أن يأخذ الداء ويقطعها و ينتشلها أما جراحة الأفكار فأعوص لأنها لا تخضع للمقاييس الثابتة و لا تعرف

المعايير الدقيقة و لا ترابط بتخصص معين وهي حمالة أوجه تتلون لكل لون وهي قابلة للمغالطة واللّف و التوجيه[3].

فإذا قمنا هنا بوضع مقارنة بين جراح الأبدان أي الطبيب و بين جرّاح الأفكار نجد أنّ جراح الأبدان يُخضع جميع أجهزته لهذا المرض أو الداء، و يستعمل كافة قوته لنشل هذا الجرح، إلاّ أن جرّاح الأفكار يحاول أن لا يستعمل الأجهزة، بل يحاول لأن نواياه مجهولة و الأسباب متعددة، وأن الجرح له سبب واحد و الأفكار متعددة لذلك يحاول المفكر الجراح، الالتزام بالدقة و الحذر و الجرح معروف بنتائجه و أسبابه، أما الأفكار فالعكس تماماً فالفكرة تتغير بتغير

---

(1) محمد البشير مغلي: مالك بن نبي كان أمة واحده براعة فكرية و مهارة عليه, مجلة الموافقات, العدد الثالث,جوان,1994,الجزائر,ص286.

(2) نفسه:ص286.

(1) محمد البشير مغلي: مالك بن نبي كان أمة واحده براعة فكرية و مهارة تحليلية ,ص286.

الزمان والمكان، فيصعب على جراح الأفكار ذالك إلاّ أن مالك بن نبي كان جرّاح أفكار يحاول التعرف على ضعف الأفكار و إعطائها الحل المناسب لها.

و كذالك نجد أن مالك بن نبي كان منهجه شموليا[1] بمعنى ليس ذلك المنهج الجزئي، بل هناك ترابط و ضيفي بين أفكاره، فلا يمكن أن يحقق فكرة إلا بفكرة أخرى تشملها و مثال ذالك: تكامل دور المسلم والأمة الإسلامية فكل مسؤول عن الآخر و كأنه يريد ان يُشعرك بهذه المسؤولية المتبادلة فإمّا أن تكون معوّل بناء تعمل على بناء و طنك و أمتك، أو تكون هادماً لأفكار غيرك، كما أن منهجه يربطك بتاريخ العصر الأول و هو العصر الذهبي بطريقة فلسفية رائعة على غير العادة من الكتب الدينية التي تضخم المفاهيم و تعطي تصورات من غير فاعلية و حركية وربط، بل كانت تعطي صورة فقط، و لكن مالك بن نبي بهذا المنهج الشمولي يربطك بحاضرك و ماضيك و يبني لك مستقبلك بصورة فعالة ومبدعه و يؤكد "**عبد اللطيف عبادة**" أن هناك فكرة محورية تشغل حيزا كبيراً من أعمال مالك بن نبي و هي أن الإصلاحيين عموماً ابتعدوا عن التخطيط الذي يعالج التغيير، من خلال هدف واضح أو برنامج موضوعي و اشتغلوا بقضايا عرضية أو جزئية، كسعي عبده، و من بعده أقبال لإصلاح علم الكلام وسعي الأفغاني لإصلاح الحكم وانشغال "**الكواكبي**" و "**أرسلان**" و رشيد رضا بمسائل دفاعية كل ذلك في نظر ابن نبي ابتعد عن جوهر المشكلة التي هي التخلف و بالتالي أهملوا تربية المجتمع بإعادة بناء شبكة العلاقات الاجتماعية و تحويل الشروط الواقعية للمجتمع نحو تحقيق التقدم.

و يتأسف ابن نبي لكون الجهود المبذولة الذهنية لم تترجم في صورة مذهب دقيق للنهضة و منهج منسجم بل ضلت تنطلق في صورة شعلات دفاعية أو جدالية[2] معنى أن هذا قد كانت نظرة المصلحين لقضية التغيير نظرة جزئية سطحية فعاب مالك بن نبي عن هذا النوع من التفكير، فحاول الغوص في هذه المشكلات و أخذ الحلول الفعالة للخروج من هذه الأزمة و هذا ما نشهده نحن هذا اليوم في تفكيرنا كونه سطحي يعالج المشاكل من رؤية واحدة وهذا ما يدلنا على أن نحن و منذ وقت طويل نعش نفس المشاكل بل زادت حدّة و الحلول لم ترقى إلى المستوى المطلوب و الواقع كفيل على ما أقول.

وعلى غير العادة نجد أن مالك بن نبي أنه ابتعد عن المنهج الوصفي الذي وقع فيه الكثير من العلماء و المفكرين العرب، بالرغم من أن الدّارسين لفكر مالك بن نبي يصفون منهجه بالوصفي، ولكن أقول أن الوصف يقتضي إعطاءه

---

(2) محمد الهادي الحسني:مالك بن نبي لمحات من حياته وقبسات من فكره,مجلة الموافقات العدد الثالث جوان 1994,الجزائر ص281 .

(3) عبد للطيف عبادة:مناهج الحركات الإسلامية المعاصرة في التغيير, نقد وتقويم إنطلاقا من فكر مالك ين بني مجلة المرافقات العدد الثالث, جوان1994 الجزائر,ص318.

صورة كما هي موجودة فالطبيب في أوّل أمره يصف لك مرضك فقط، و لكن مفكرنا مالك بن نبي كان طبيباً و صيدلي بالعلاج أو الوقاية و لكنه يلقى مع ذلك منهج الكشف و منهج الوقاية و التحقيق و التصويب و منهج تشخيص المرض و تحديد الأعراض، و في معالجته الواقعية لمشاكل العالم الإسلامي نجد أن منهجه يحمل الإنسان المسلم على خطورة الأمر، بحيث يضع أصبعك عليه و يُحمّلك مسؤولية كبيرة جرّاء ما وصل إليه العالم،فنحاول مرّة إفراغك و تثبيطك، ثم يحرّك فيك روح الأمل والغد ويرجع لك الحيوية و الحركية فكان أحيانا مستخرجاً عبرة ما، نظرية يوما، مسطراً قاعدة يومًا آخر واقعية يعطي للإنسان ضرورة تغيير واقعه من الأسوأ إلى الأفضل فميزة منهجه ليست الواقعية التي لا يستطيع المرء تطبيقها خاصة الإنسان العربي، وأقصد في هذه الواقعية واقعية كانط وبالضبط في مفهومه للواجب بالرغم من أنها هذه الفلسفة الكانطية قد توجه توجيها مثاليا، إلا أن فلسفة مالك بن نبي بالرغم من تأثره بكانط* إلا أن أسلوبه كان أسلوباً لإصلاح الواقع بنظرة جدّ متوافقة مع إمكانيات الشباب المثقف وهذا أكد عليه الأستاذ مصطفى السباعي في قوله :<< **استطاع بأسلوبه الذي تفرّد به، و ثقافته الغربية الواسعة مع ثقافته العربية الإسلامية أن توجه إليه أنظار جيل من شبابنا المثقف الذي يتوق إلى الإصلاح مع احتفاظه بقوة العقيدة و سلامة التفكير** >>[1] و عليه نقول أن قوة هذا المنهج قد ارتكزت على نقطة أساسية هي قوة العقيدة و أنا أفضل بلغة مالك بن نبي أن أقول حركية و فاعلية العقيدة لأن هناك من هو في صومعة مسجد، أو في زاوية من زوايا التي تخمل الأفكار و تقتلها، وهو له قوة في العقيدة، و لكن مالك بن نبي كانت عقيدته متجددة و سارية المفعول فذكرها التاريخ في وقتها وبعد وفاته فالتاريخ لا ينسى، بل يبقي شرفاً لمن كانت عقائدهم لأحياء الضمائر و بعث النفوس و لإشراقه الأفكار، أما الذين خمدوا العقائد فهم نسيًا منسيًّا.

و لا يمكن أن نقف على منهج مالك بن نبي في التفكير إلا إذا و فقنا على تعريفه للحضارة، بحيث يمكن أن نقول أن الحضارة هي المصباح.

ونتساءل متى يصح تسمية هذا المصباح بالإنتاج الحضاري؟ و الحقيقة لا يمكن وصفه بذلك إلا إذا صاحبت إنجازه، و الآدميون الذين قاموا بعملية الإنجاز، يمثلون جميعا منتجات اجتماعية لحضارة معنية هذا نجد أن التحليل و التركيب قد استخدمه مالك بن نبي في رؤيته للحضارة، فالحضارة هي عملية تحليلية تركيبة لمجموعة من الشروط التي يستخدمها الإنسان.

---

(1) بشير ضيف الله: فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي ,ص26.

* بطبيعة الحال نجد أن مالك بن نبي قد تأثر بكانط عندما جعل تفسيره لحركة التاريخ أن يتوسط التفسير العقلاني الهيغلي و التفسير المادي الماركسي حيث جعل ثلاث عوامل مختلفة تحرك التاريخ عالم الأشخاص و عالم الأشياء و عالم الأفكار.

و المنهج الوضيفي للحضارة فهي كونها مجموعة من الشروط الأخلاقية و المادية حيث يقول: <<**فالمدرسة و العمل والمستشفى، ونظام شبكة المواصلات و الأمن في جميع صوره عبر كامل أنحاء الوطن و احترام شخصية المواطن، تمثل جميعها أشكالاً مختلفة للمساعدة التي يستطيع المجتمع أن يقدمها للفرد الذي ينتمي إليه** (1)>>

نرى في هذا القول أن هناك علاقة وظيفية تشاركية بين أعضاء المجتمع الواحد فلا يمكن حسب هذا القول أن تصل إلى الحضارة إذا كان هناك تعارض بين الوظائف التي يقوم بها الفرد والمجتمع بحيث أصبح هناك صراع و يصبح قانون الغاب هو الذي يتحكم، فلا بُد إذا من تعاون و توظيف جميع الشروط الأخلاقية أي المعنوية و المادية من اجل أن يعيش الفرد في مجتمع يُسمى بمجتمع الحضارة، ولعلّ المتأمل لواقعنا يرى أن الفرد أصبح في غنى عن الأخر، و الآخر قد انعزل عن الفرد، وأقصد هنا أن مؤسسات المجتمع لا تعيش توافق مع الفرد بل هي في صراع معه، و الفرد هو أيضا في صراع و عدم تشارك مع أفراد المجتمع فأصبحت هناك حالة فوضى و هذا ما نعيشه نحن اليوم حيث أطلق مالك بن نبي على الإنسان بإنسان ما بعد الموحدين لأنه إنسان قد انعزل عن واقعه لم يقدم خدمة للمجتمع، فيحق لنا أن نقول أن هذا المجتمع هو مجتمع متخلف بكل ما تحمله الكلمة من معنى فنرى أن مالك بن نبي قد استخدم هذا استخدام المنهج الوظيفي لكي يعبر عن مدى قمة الحضارة بأسمى معانيها.

ولعل الدّارسين لفكر مالك بن نبي أجمعوا أن هناك عدة مميزات لمنهجه في التفكير سوف نذكر منها على سبيل المثال:

- حصانة الفكر الإسلامي و أصالته و صفائه و فعاليته إنه يريد فكراً فعالاً منتجاً حضارياً[2] يعني أنه لا يريد ذلك الفكر الذي يرتكز فقط على المفاهيم و التطورات بل يريد فكراً يركز بل يعيش على روح النشاط و الحركية لكي نصنع حضارة، لأننا في صراع الركب الحضاري.

- يعتمد على التحليل الرياضي و المنطقي و الفلسفي كما يستعمل المنهج النفسي الاجتماعي لاستجلاء مكونات الفرد والمجتمع[1]فلم يكن منهج واحد، فهو منهج متعدد خاضع للمؤثرات و القراءات المتعددة، فهو لم يقتصر فقط

(1) الأخضر شريط :مشكلة التاريخ عند مالك بن نبي رسالة ماجيستير ،معهد الفلسفة ,1989ص 138 .

(1) محمد البشير مغلي :مالك بن نبي كان امة واحدة براعة فكرية ومهارة تحليلية,ص288 .

على الجانب العلمي فقط بل تعمق بعمق الظاهرة النفسية و الاجتماعية فأدرك أن كينونة التغيير و حقيقة نقض التراث هي من صميم الإنسان فالمشكلة هي مشكلة الإنسان.

فمنهجه كان يتميز بالنزعة التفاؤلية في أحلك الظروف و اختناق الأزمة بحيث تنبثق منها إمكانية العلاج و تدارك الأمور وتجدد الدور الرسالي[2]، فمنهجه قائم على إرجاع الأمل و بعث في النفس المستقبل، بالرغم من أن المشاكل عديدة، و لكن الحلول متوفرة و موجودة كل على حسب طاقته و إبداعه، وكلّ حسب مستواه و إمكانه،فهَلُم نُفَكر و نبدع .

– تميز منهجه بالتحليل الرياضي الدقيق[3] فنظرته إلى المشروع التربوي و الثقافي و الاجتماعي و السياسي كانت بلغة تحليلية رياضية و بلغة الفلسفة كانت بذور السببية و الحتمية ولغة الرياضيات المنحنى البياني مسألة الصعود و الهبوط و الارتفاع والنزول فلم يكن منهجه قائم على اللفظ و الإبداع الأدبي، بل كان عطره لغة الرياضيات وهي في رأي لغة المبدعين.

ويمكن أن أقول في ظل هذه المميزات أنّ منهج مالك بن نبي كان حمال أوجه فمرّة منهجه تحليلي، يحلل ويفكك المفاهيم، و تركيبي يضع و يركب المفاهيم ، فهنا نراه يجمع بين المنهج التحليلي و التركيبي.

و تارة أخرى يستعمل الشواهد القرآنية ليحافظ على أصالته (منهج أصيل) و لكي لا يقع في الفخ يزود أفكاره بنسمات من الفكر المعاصر فيدخل لغة اليوم لكي يجمع بين ما هو ماضي و حاضر في نفس الوقت .

إضافة إلى أن منهجه كان منهجاً موضوعيًا صارماً منطقيا يمزج بين لغة علم النفس والاجتماع، لأنه أدرك أن مسألة التغيير و الإصلاح لابد من جميع الأسلحة لا سيما العلوم الإنسانية و الاجتماعية، لأنها هي من العلوم التي تضبط السلوك الإنساني، فالعالم الغربي سبَبُ تطوره وتقدمه هي قوة العلوم الإنسانية والاجتماعية، فأدرك مالك بن نبي أن الحل قائم على فلسفة تهيكل الإنسان، فكان منهجه ملازماً لهذه الطريقة فصوّب و قوّم وقيّم الإنسان فهل نعي الدرس؟

و يمكن في الختام وصف منهج مالك بن نبي بأنها تعويذي خصوصاً أنه كان كثير الترداد في صلواته "للإخلاص والمعوذتين" بحيث إذا تكلّم مستشرق أو شخص غريب في قضايا المسلمين فسرعان ما يزدحم عليه تلقائيا و بإملاء من منهجه الصارم المتحرر فيطرح هذه الأسئلة:

---

(2) نفسه:ص288 .

(3) نفسه:ص288 .

(4) نفسه:ص288 .

1)- من المتكلم؟ بحثا عن هويته و استنباطا لإحداثياته التاريخية و السياسية و الثقافية.

2)- ماذا يقول؟ استفسارا عن المحتوى و تحرّيا لمدى الموضوعية و استقراء لأخطائنا.

3)- و لماذا يقول؟ تبعاً لأهدافه و تقفيا لمراميه و دراسة دوافعه[1].

هكذا إذاً كان منهج مالك بن نبي يتصف بهذه الاحتياطات المنطقية للوصول إلى عين الحقيقة، فإن كان كل منّا يتحرى لهذه الأسئلة المنطقية لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه، نعجب من كل مقال، نتباهى لأي خطاب، فلوكنّا ندرس أي خطاب، خاصة نحن في تعدّد الخطابات خطاب في الحداثة و خطاب في السياسة و خطاب في الدين، إن لم نقل الأديان لما دخلنا في غيبوبة الصراع الفكري.

ونستخلص فيما سبق أن منهج مالك بن نبي كان يحمل مشروعًا حضاريا، يريد منه إخراج الإنسان المسلم من دائرة التخلف إلى التطور، و من دائرة الفراغ الروحي إلى قوة الروح، و من الأصنام و الأوثان إلى عبادة الأفكار ومن الأشياء و الأشخاص إلى عالم العلم والمعرفة، و من الصراع إلى التفاهم والحوار من أجل الالتحاق بالركب الحضاري .

ولكن هناك إشكالية أثارها المهتمون بفكر مالك بن نبي و خاصة المفكرين العرب و أقول العرب لأن هؤلاء يهتمون فقط بالأفكار النظرية من غيرها تطبيقا على أرض الواقع على عكس الغرب الذين يهتمون بتطبيق أي فكر حتى و إن كان من عدوّهم وهذه الإشكالية هي إشكالية المنهج في حدّ ذاته، بمعني منهجه هذا هلْ هو مُصْلح اجتماعي يتصدر قائمة المصلحين الذين وَعَوْا بأسباب الفساد في مجتمعهم فأخضعوا الواقع للدّراسة فهو مصلحُ ؟

- أم أنه عالم اجتماعي بسيكولوجي يأتي في طليعة علماء الاجتماع مع ابن خلدون ودوركايم حيث درسوا الظواهر الاجتماعية و أخضعوها لمنطق التجريب؟

أم أنه فيلسوف تاريخ مثله مثل "**توينبي**" و "**شبنلغر**"، بحيث فلسفوا التاريخ و أخضعوا الظواهر التاريخية للعمل الفلسفي؟.

أقول أنه يجب علينا كباحثين تجاوز هذه الإشكالية لأنها إشكالية مفرغة من محتواها فعلينا أن نأخذ من منهج هذا المفكر ولأنه و بموضوعية أقول أنه منهج ذاتي ولا أقصد الذاتية أي الانطواء على الذات و التعصب إليها، و لكنه منهج يتماشي مع الشخصية الذاتية، و يحافظ على مقوماتها و ركائزها خاصة و نحن في زمن القصف بالهوية وهو زمن العولمة وكما أنه منهج يجعلنا نرجع حساباتنا إلى الذات و نُعيد فهْمِهَا و محاولة تغييرها، كما أنه منهج يتماشى مع جميع

[1] محمد البشير مغلي :مالك بن نبي كان امة واحدة براعة فكرية ومهارة وتحليلية ص289 .

الظروف المحيطة بالعالم الثالث لأن غيره من المفكرين قد استوردوا القيم الغربية و حالوا نشرها من دون فهمها هي نفسها، فما بالك و أن نحاول بعثها في المجتمع, فمالك بن نبي أدرك أن الإنسان هو قائد الحضارة فلابُد من أن يكون هناك فلسفة تعمل على هيكلته و تربيته لاستغلاله فيما يخدم الإنسانية إلا أنه منهج مالك بن نبي يحتاج إلى إرادة سياسية قوية لإنجاح هذا المشروع الحضاري، فهو يحتاج إلى مؤسسات ذو فعالية و حركية تحاول تطبيق هذا المنهج بالرغم من أننا نقول أن العالم اليوم أصبح لا يعترف بما هو بحاجة إلى سياسة، بل أصبح الإنسان هو في حدّ ذاته مسؤول عن قراراته، يقوم بما هو بحاجة إليه و لكن بطبيعة الحال نقصد الإنسان الغربي، أما الإنسان العربي فهو يحتاج إلى إرادة سياسية و إلى منهج بل إلى مناهج عديدة و في جميع المجالات السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية والثقافية والدينية، و الأهم في كله فلا بُدله من أن يتغير هو نفسه، لكي يستطيع أن يكون في إطار الركب و التطور الحضاري، و كذلك مسألة التغيير لاتقف عند الإنسان كونه هو المشكلة الحضارية، بل يحتاج إلى ثورة تغييريه في المفاهيم الدينية كمسألة القضاء والقدر والحرية و المسؤولية.

كذلك ثورة في المجال السياسي و الثقافي بتغير الأنماط الثقافية السائدة إلى غير ذلك من الثورات لكي يقفز إلى ما هو جدير و إلى ما يحتاج إليه .

و يمكن أن نستخلص مجموعة من النقاط أهمها:

أنّ حياة مالك بن نبي كانت حياة بسيطة في مجرياتها، فلم تكن حياة إنسان كان ينعم بالجاه و السلطان والمال،بل بالعكس كانت حياة مثقف احتاج فيها الكثير و تمرد مع صعوبات الحياة و لكنه لم يمنعه هذا بأن يكون مثقفا واعيا بهموم أمته ومشاكلها لمْ يكن مثقفا ذو شهادة بل كان حياته كلها تحليل و دراسة لجميع الأزمات التي يعاني منها سواء الشعب الجزائري بكافة أطيافه الطالب، الفلاح، المثقف ورجل السياسة و رجل الاقتصاد و لم يتوقف الأمر هنا بل درس حتى مشكلة المرأة بجميع أبعادها إذا حياته كان شعارها العلم من أجل الآخر، من أجل جعل المعانات و المأساة لسعادة نسْتشف به مآسي الزمن و جبروت الآخر.

لقد شكلت العوامل المختلفة خاصة منها الأسرية والاجتماعية و كذلك الدروس التي تلقاها من معلميه و المطالعات التي قام بها في الصحف،و الثقافة المتنوعة و المتفتحة على ثقافة الآخر، كل هذا شكل نسق فكره الحضاري، حيث تعمق فكره حول الإنسان، ولعل محتواه الفكري الذي شكل مجموعة من الكتب جعلها تدور في عمق واحد و هي مشكلة الحضارة، ولكن لكل كتاب رؤيته للمشكلة من عدة زوايا فالمشكل متتعدد فمثلا مشكلة الإنسان هي ثقافته، فأصدر كتاب بعنوان"مشكلة الثقافة" يحتاج الإنسان المسلم لعدّة شروط للنهضة فأكتشف لنا شروط النهضة

التي محتواها تحدد لنا خطوات للنهوض وهكذا إلا أن هذا الفكر بالطبع يحتاج دائماً لمن يحدّد له وظائفه وسيره في المجتمع فهل ندرك الدرس؟

و إن المتأمل و المتعمق لمنهج مالك بن نبي يجد و –بكل موضوعية– أنه منهجاً قد ابتعد فيه عن الدراسة السطحية، بل تعمق و تغلل في الجذور المتسببة للمشاكل باحثا عن السنن و القوانين الكفيلة بتحويل الشعوب من الخنوع إلى رفع الرأس، من التبعية، إلى القدرة، و الفاعلية، من الغفلة إلى الفطنة و الحذر، فأدرك أن المعركة الحقيقية هي معركة فكرية بيننا و بين الآخر فرأى بضرورة أنّ الحل عند الذات أي الإنسان في حد ذاته و لا يكمن الحل عند الآخر مستشهداً بقوله تعالي: << **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** >> [سورة الرعد الآية 10]

المبحث الأول : الإنسان مشروعا حضاريا

أولا: أولوية الإنسان

يعتبر مالك بن نبي و كما رأينا في الفصل الأول أنّه أعطى اهتماما بالغا بالمشكلات التي يعاني منها العالم الثالث,و ذلك وفق دراسة تميزت نوعا ما بالتخطيط العقلاني, و هذه ليست مبالغة بل هي حقيقة عندما بلغ محور المشاكل و هو هذا الإنسان.

فعندما نعيش التخلف و البقي في الذيل, عندما نغرق في الأزمات و الهزائم عندما لا نجد حلولا لمشاكلنا, بل عندما نجد أنفسنا أمام مشهد مأساوي ينبض بالرداءة و الهشاشة و الرثاثة, يصبح لزاما علينا أن نعيد ترتيب أوراقنا أن نعيد قراءة ذاتنا [1],من خلال أوراق مالك بن نبي .

هذا الإنسان الذي أصبح في هذا الزمن الذي طغت عليه التقنية و صرخ فيه العلم صرخة لم نعرف طولها, أو مدة بقائها, هذا العلم الذي غيّر الكثير من المعطيات و المفاهيم, التي كانت في وقت ما ينظر إليها البعض الباحثين أنها لا تتحرك ولا تتزعزع, إلا أن قوة العلم لم تجعل هذه المفاهيم تصمد أمام هذا الهيجان العلمي و إليك أيها القارئ مثالا على ذلك الثقة مثلا: كمبدأ أخلاقي كانت ميزة للإنسان و خاصة الإنسان العربي, اليوم أصبحت هذه القيمة الأخلاقية مبدأ قانوني و أصبحت ذات صيغة قانونية لا أخلاقية**!!**

وإن الخوض في هذه المسائل ليس من قبيل النزهة الفكرية, أو تصارع فيه بعض الأفكار و هذا ما نجده اليوم عند المثقفين اليوم عندما يعتبرون أن موضوع الإنسان في الوطن العربي, أو موضوع النهضة, أو الثقافة نشرا لأيديولوجياتهم و لأفكارهم, إن لم نقل لترهاتهم الفكرية عندما نسمع من هنا و هناك مثلا أن عمل المرأة حرام, أو صوتها حرام, حيث نجد أن انشغالهم جزئي و عرضي و هذا ما يؤكده محمد الغزالي يقول: << **إننا نعيش لنرى دك مدن عظام و تمزيق أمة كبيرة و غيبوبة الوعي الإسلامي إزاء آلام تحرك الرواسي, و مع نشاط الهائل الذي يسود جبهة العداء فقد رأيت بني قومي** >>[2].

---

[1] أوليد بوعديلة : التغير الإنساني, في فكر مالك بن نبي, دار الهدى, الجزائر, ط1 2006, ص 77.

[2] محمد الغزالي :هموم داعية , عالم الأفكار, الجزائر , ص8.

ماذا يفعلون؟ الذين يحسبون أنهم حاملين لواء النهضة و الفكر و الحكمة و يرون أنهم هم الحل, في ظل عالم كثرت فيه الحلول و قلّت فيها صدّق هذه الحلول و فعاليتها بلغة مالك بن نبي: إنهم << **لا يزالون يمضغون خلافات جوفاء, وتسيطر عليهم أفكار ضحلة و تسيرهم أهواء قاتلة وشهوات عيبيه**>>[1] فهل ندرك الأمر؟.

لذلك كان مالك بن نبي يحاول عبر هذا الإنسان أن يني مجتمعا أفضل و يعتبر ذلك أنه واجبا حيث يقول:<< **ذلك المجتمع الذي أصبحنا نشعر بوجوب بنائه و تحريك طاقاته التي عطلها التاريخ منذ قرون, قرون التدهور والانحطاط التي كان حظ العالم الإسلامي منها بعد ازدهار حضارته** >>[2].

فحالة هذا الإنسان, و حالة هذا المجتمع الذي أصبح لزاما على الغيور على حاله أن يجد مخرجا لهذه الوضعية المأسوية التي وصل إليها إنسان ما بعد الموحدين هذا الإنسان المثقل بالهموم, منحرف السلوك و الفكر , ثقافته ثقافة سهلة و مرنة, لا يحقق أهدافه وغير منظم, مستهتر لوقته و حياته الى غير ذلك من الأوصاف المزمنة حضاريا.

لذالك نجد أن مالك بن نبي في معادلته الحضارية التي وضعها للخروج من هذه الأزمات, فالإنسان هو جزء أساسي من هذه المعادلة التي وصفها الباحثون بأنها معادلة رياضية :فكيف ذلك ؟.

لقد وضع مالك بن نبي هذه المعادلة وفق عملية تجمع بين العوالم عالم الأشخاص و عالم الأفكار و عالم الأشياء لكي يحقق نتيجة و هي الوصول إلى الحضارة أو إلى التطور فرياضياً هي :

حضارة = إنسان + تراب + وقت

و نجد أن مفهوم الحضارة في تصور مالك بن نبي يعتبر أن الإنسان هو العقل المفكر بالإضافة إلى التراب الذي يمثل في عالم الماديات و تفاعل هذين الاثنين يمثل لنا الوصول إلى هذا الهدف, وهو الهدف الحضاري,إن هذه العوالم و تفاعلها هو المسير الفعلي لحركة التاريخ و جدليته حيث يقول مالك بن نبي:<< **لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة بل متوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج أيديولوجية من عالم الأفكار تتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص, فالعمل التاريخي هو من صنع الأشخاص و الأفكار و الأشياء جميعا** >>[3].

---

[1] محمد الغزالي: هموم داعية ص8.

[2] مالك بن نبي :تأملات,دار الوعي ,الجزائر ط2013 ص156.

[3] مالك بن نبي : ميلاد مجمع,ترجمة: عبد الصبور شاهين, دار الفكر, دمشق, سوريا ,ط3, 1976,ص27.

و لقد نفي مالك بن نبي أن تكون فكرة هيغل هي المحرّك الحقيقي و الوحيد لحركة التاريخ كما نفى أن تكون نظرية ماركس المادية هي أصل المادية التاريخية. فهو يجمع دائما بين عالم الأفكار و الأشياء فكان كانطي الطرح.

فنجد إذاً أن مالك بن نبي قد تجاوز الدّراسات الكلاسيكية التي حاولت أن تعالج المواضيع من وجهة نظر جزئية أو دراسة عابرة من دون أن تضع المشكل على الداء.

فبذلك يكون هو من حوّل الدراسة إلى هذا الإنسان كون أنّه هو من يحمل لواء العمل و النهوض, على غير ذلك من المفكرين الذين انشغلوا بقضايا لم تسمن و لم تغني من جوع, فهم يفكرون لغيرهم , ويكتبون لأنفسهم, ويحللون قضايا بعيدة عن الواقع الإنساني في البلاد الإسلامية حيث يقول مالك بن نبي << **بينما البلاد الإسلامية على نقيض ذلك أزمتها ليست في الحركة, بل في الركود, فهو مشكلة الإنسان المتوطن فيها, الذي عزف عن الحركة, و قعد عن السير في ركب التاريخ** >>[1].

إذاً إن الأزمة ليست إلا في الإنسان, هذا الكائن الذي كرمته كل الديانات السماوية بل سعت إلى أن تجعله هو خليفة الله في الأرض, و هذا ما نجده في الدين الإسلامي الذي أنزل خطابه القرآني مكرما لهذا الإنسان و لهذا الكائن الحيوي الاجتماعي.

نجده اليوم و أخص بهذا الإنسان المسلم لأن هناك من يعتبر أن مالك نبي قد وسع دائرة الإنسان, فهو يقصد الإنسان المسلم و الدليل على ذلك عندما جعل الدين مفعل لهذا المعادلة فيصبح بذلك إنسان متوازن.

إلاّ أن هذا الإنسان المتوازن اليوم افتقد الكثير من توازنه الذي حصل عليه عندما كانت الفكرة أو الروح هي التي تعمل على توازنه و العصر الأول أو ما يطلق عليه العصر الذهبي هو الكفيل على ذلك عندما جعلت منطلق العمل بالفكرة و الروح, فنحن اليوم في ظل هذه الأزمات لا نحتاج إلى قشقشة ألفاظ أو إلى بلبلة أفكار بل نحتاج إلى إنسان يقول مالك بن نبي: << **يجب أولا أن نضع رجالا يمشون في التاريخ, مستخدمين التراب و الوقت و المواهب في بناء أهدافهم الكبرى** >>[2] فهو يصر على صناعة الرجال و صناعة النموذج الذي طالما تكلمت عنه الفلسفات الإنسانية, إلا أنها للأسف لم تصل إلى هدفها هذا الإنسان المتحرك في صميم التاريخ, حيث شغله الشاغل عمارة الأرض باستخدام كافة الوسائل المستعملة كالتراب و الوقت و المواهب, لكي يستطيع أن يصل إلى تحقيق الأهداف و في جميع المجالات سوآء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية و في كل المجالات.

---

[1] مالك بن نبي : شروط النهضة, ترجمة عمر كامل مسقاوي , عبد الصبور شاهين, دار الفكر, بيروت, ط3 1969, ص113.

[2] نفسه: ص114 .

فمسألة اليوم هي ليست مسألة دين, أو ثقافة, أو حوار , أو فلسفة بقدر ما هي إشكالية إنسان, لذلك نعيب كل العيب و نحن في هذا الزمن الغابر أن نعالج مسائل لا علاقة لها بالواقع, إلا مالك بن نبي قد عانى كثيرا من الأمراض التي جعلتنا نبقى في نفس المكان بل الأعجب أننا لم نتحرك لذلك وجدتُ نفسِي مضطرا و أنا أكتب في هذا الموضوع أن أطرح الطرح من دون توجيه نقد بقدر ما أنا متفاعل مع مالك بن نبي في رؤيته الفكرية لموضوع الإنسان, فمن جهة لوضعه إصبعه على الداء و هو الإنسان, و لمرارة الواقع الذي نعيشه يوميا و الإنسان هو السبب في ذلك .

ثانيا: تصنيف مالك بن نبي للإنسان

يميز مالك بن نبي في ملاحظاته للإنسان و خصائصه, فجعل له تصنيفا في مشروعه الحضاري مع وصف البيئة و المحيط التي تشكل طباع و شخصية الفرد وفق للمحيط و للبيئة و لقد صنف:

مالك بن نبي بين إنسان المدينة و البادية حيث يقول : << **الصنف الأول: و هو الذي يسكن المدينة , إما متعطل لا يعمل شيئا, و إما أنه بيع بعض العقاقير** >>[1]. فيؤكد مالك بن نبي بأن هذا الإنسان قد تغلغلت في نفسه دواعي الإنحطاط و يضرب مالك بن نبي مثالاً على ذلك وفي هذا الصدد << **قد تغلغلت في نفسه دواعي الانحطاط التي قضت على المدنيات المتعاقبة على بلاده من أيام قرطاجة,فهو يحمل روح الهزيمة بين جوانحه**>>[2]و يواصل مالك بن نبي وصفه لهذا الإنسان الذي كان في زمانه و حسب رأيه أنه إنسان قلة و إنسان نصف أي أنه إنسان يتحرك و لا ينطلق بل يبقى في نصف الطريق, و هو رجل الذي غيّر فكرة الإصلاح إلى سياسة لأنه لم يكن مستعدا لهذا العمل الثقيل.

أما الصنف الثاني يقول فيه: <<**الصنف الثاني : و هو الذي يسكن البادية مترحلا بلا مواشي,فلاحا بلا محراث و لا أرض** >>[3] و أطلق عليه مالك بن نبي برجل الفطرة الذي يرضى من الأشياء بالعدم .

و بذلك يكون مالك بن نبي قد قسّم هذا الإنسان إلى صنفين إنسان المدينة الذي عشعشت فيه الهزيمة في روحه,و إنسان غلبت عليه الشهوة و إنسان البادية و الفطرة الذي يعمل من دون ملل أو كلل.

(1) مالك بن نبي : شروط النهضة,ص114.
(2) نفسه :ص114.
(3) نفسه ص114.

بالرغم من أن هذه النظرة كانت في فترة زمنية معينة و تاريخية في وقت مضى إلا أن هذا النوع من التصنيف نجده قد تغير في الوضع الحالي لأن- وكما قلنا سابقا -أن حركة التكنولوجيا قد وصلت حتى إنسان الفطرة فغيرت من طباعه و خصاله و أنهكته هو الآخر فوصلنا إلى ما وصلنا إليه الآن .

فامتداد هذه الحركة العلمية قد جعلت هذه الشعوب لا تعرف حتى نفسها فما بالك بأن تعي هدف وجودها على سطح هذه الأرض التي لم تعد تعرف إلا بالإنسان الفعّال, الإنسان الذي وصفه القرآن الكريم بالخليفة فهذا النعت و الوصف يقتضي العمل و الحركة لا الخلود و الركود .

ولم يقتصر شاهد القرن على البحث في الإنسان بل ربط الإنسان بالبيئة التي يعيش فيها و بطبيعة الحال أَن البيئة و المحيط الخارجي تختلف عن غيره حيث يقول بن نبي << **إن المشاكل التي تحيط بالإنسان, تختلف باختلاف بيئته, فالإنسانية لا تعاني مشكلة واحدة بل مشاكل متنوعة تبعا لتنوع مراحل التاريخ**>>[1].

فالأزمات التي يمر بها الإنسان نجدها تختلف باختلاف المحيط و الزمن فليس المشاكل التي هي في القرن السابق هي في القرن الحالي, بل في المشكل الواحد يختلف مع البيئة و التاريخ فما بالك بالمشاكل المتعددة.

ويضرب شاهد القرن مثالا على ذلك حيث يقول :<< **ففي بلد أوروبية كبلجيكا, نجد الرجل لا يتمتع بتوازن اقتصادي في حياته, فهناك اضطراب نتج عن عدم ملائمة بين حاجاته, وتيار الإنتاج الصناعي المسرع و من هنا تنشأ مشكلة اجتماعية يعانيها شعب بلجيكا وهي مشكلة : حركة مضطربة لا يشعر بها شعب لا يعيش في مجال هذا التيار** >>[2].

فالإنسان في هذه البيئة قد تعلق بحاجات و ديناميكية غير مستقرة بل هي مضطربة في هذا البلد الأوربي, بينما يتساءل البعض عن هذا الركود الذي أصاب إنسان العالم الثالث, و الذي ألفت عليه العديد من أمهات الكتب و التي هي اليوم مرصوصة في مكتبات الجامعات و البلديات و المساجد اليوم يجيب مالك بن نبي بقوله: << **بأنه تعلق بالعديد بعادات راكدة وضعت الفرد في حالة توازن خامد, و خمول تام في الوقت الذي خطت فيه الحضارات خطوات العماليق** >>[3] .

---

(1) مالك بن نبي:شروط النهضة:ص113

(2) نفسه:ص113.

(3) نفسه, ص113.

و عليه نؤكد في ظل هذا الوضع الراهن نجد أن إنسان هذا العالم قد ركن إلى العديد من العادات و التقاليد التي كبلت له عقله و جعلته في ذيل الدول إن لم نقل عدم وجوده تماما, و الواقع يؤكد على ذلك أنّ العادات الاجتماعية التي كانت في مجتمعاتنا اليوم قد أوصلته إلى هذه الحالة المزرية .

فإن هذه العادات خلفت لنا ثقافة إنسان انهزم في جميع الميادين لتعلق قلبه و فكره بعادات قديمة خلقت لنا إفرازات وخيمة : كعادة الزعيم الذي نجد أن أتباعه لا يحرّكون ساكنةً و لا يقولون فيه شيء و لا يحركون نقدا و لا تحريكا لعقولهم و أفواههم وعادة الزعيم سواء زعيم دولة أو زعيم جماعة إسلامية, أو زعيم مؤسسة أو زعيم مجتمع إلى غير ذلك من الزعماء الذين أوصلونا إلى ما وصلنا إليه اليوم .

لذلك نجد أن عقولنا قد تحجرت و قست بأفكار سوف تبقينا على هذا الحال, فالتغيير نحتاج إليه اليوم و نحتاج أكثر إلى فلسفة التغيير .فالإنسان هو صورة لهذا المجتمع المريض فإنسان مريض تلقائيا مجتمع مريض حيث يقول مالك بن نبي : << **فمن الرجل تنبع المشكلة الإسلامية بأكملها** >>[1].

فنحن اليوم إذاً نحتاج إلى إنسان يتخلص من كل الرواسب و العادات التي يتلقاها من هذا المجتمع, فهذه المشكلة تلزم علينا أن نضعها نصب أعيننا لكي نحرك الواقع بل علينا تغييره , فمن العيب نجد مثلا: أن ماركس وفق الفلسفة التي نهض عليها قد استطاع بفكره الثوري الراديكالي القائم على المادة هي صانعة الواقع قد غير وجهة العالم من نظرة إلى أخرى, من فكرة إلى واقع مادي و نجده قد أوجد لنفسه أتباع هم اليوم وراء هذا الفكر و هذا الإنسان الذي تصوره ماركس هذا الإنسان المادي– و إن كنا نختلف معه في وجهة نظره اختلافا جزئيا – إلاّ أنه كوّن لنفسه شعبية هي اليوم تمثل مناهج و قوانين لدول عظمي في العالم .

وبقينا نحن نبحث عن أمور و ترهات لا علاقة لها بالواقع,لذلك نجد أن إنسان هذا اليوم قد خلقته هذه الفلسفات المعوجة و الغير واضعة يدها على مكمن الأمراض, فالفلسفة هي التي تولد الإنسان فمتى تكون الفلسفة فاشلةً يكون هناك إنسان فاشل.

لذلك عمل مالك بن نبي على إعادة هيكلة هذا الإنسان الذي ظلم نفسه و ظلمته الفلسفات التي لم تعطه حقه من الدراسة و التفكير, و اهتمت فقط بأمور لا يستحقها هو اليوم, أو هو مترفع عنها اليوم , وفلسفات فاتها الزمن إن لم نقل لم يعد يلقى لها بالا هذا الزمن .

[1] مالك بن نبي:شروط النهضة،ص114.

ثالثا: الهيكلة التربوية

إن المسألة الجوهرية في التغير الحضاري مرتبطة بذات الإنسان حيث تصور شاهد القرن العمل على إدراك البنية النفسية بأبعادها المختلفة و المتفاوتة أراد أن يحول النفس الإنسانية من حالة مذمومة في الغرائز و الشهوات إلى حالة إنسانية لذلك وضع مالك بن نبي هيكلة تربوية.

فالهيكلة التي وضعها مالك بن نبي لهذا الإنسان هي هيكلة قامت على أساس يقوم على ملئ هذا الفراغ حيث يقول مالك بن نبي في هذا الصدد << **إذ يعتزل الإنسان وحيدا ينتابه شعورا بالفراغ الكوني** >>(1) هذه هي طبيعة الإنسان فعندما يعتزل الإنسان الكون يشعر بهذا الفراغ الروحي لأنه باعد بينه و بين هذا العالم المتحرك الغير المتوقف لكن ماذا يفعل؟ يجيب على ذلك << **لكن طريقته في ملء هذا الفراغ هي التي تحدد طرز ثقافته و حضارته**>>(2) فهذا الشعور عليه أن يملئ هذا الفراغ و لكل إنسان و طريقته في ذلك على حسب ثقافته و حضارته كاللجوء مثلا إلى الملاهي و المقاهي و غيرها من السلوكات التي عرفت بها الحضارة الغربية نعني بذلك الإنحطاط الخلقي, و لكن هذا لا يعني تماما أن هذا الإنسان الغربي منحط في كل الميادين و لكن فقط جر سلوكه إلى مخاطر أخلاقية تفسده كونه بلغة طه عبد الرحمن إنسان أخلاقي.

ولقد مرت الحضارة الإسلامية حسب بن نبي بثلاثة مراحل وهي :

- و هي مرحلة الروح : تقابل المسافة التاريخية ما بين غار حراء وواقعة صفين عام 38 هـ .
- مرحلة العقل : و تقابل مرحلة الحضارة الإسلامية في العصر الأموي و العصر العباسي الأول حيث وهنت الروح و نما العقل .
- مرحلة الغريزة : و يقابل مرحلة الحضارة الإسلامية في العصر العباسي المتأخر و العصور التي تلت إلى ابن خلدون و هي العصور التي أظلم فيها ليل التاريخ (3).

و لكن و ضع مالك بن نبي طريقتان لملء الفراغ حيث يؤكد هو على ذلك <<**فأما أن المرءُ ينظر حول قدميه أي نحو الأرض** >>(3) و هذا حال الإنسان الذي يركن إلى الغرائز و يشدّ نفسه على بقاء في الأرض, فهو في حالة ركود تام نحو الشهوات و غرائزه , فقد ركن لشهواته و ملذاته و هذا هي حال الإنسان العربي اليوم

(1) مالك بن نبي:مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ,دار الفكر بيروت ط1 1988,ص 17.
(2) نفسه:ص17.
(3) حسين يوسف:واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم في فكر مالك بن نبي,مجلة الموافقات العدد3 1999,ص354.
(4) مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي,ص17.

نجده أنه يتخبط في هذه المشاكل بسبب أنه قد ركن لشهواته و غرائزه , لذلك فهو الآن- و في حالنا المعاصر- نجد أن الشهوة قد غلبت منطق العقل و الروح فنجد أن الإنسان الأول أي الصحابة, قد غلبوا منطق العقل, و حركوا الروح لصنع الحضارة بينما بقينا نحن نركن لشهواتنا و لمطامعنا التي هي في غالبا الأحيان تعصف بنا و تعصف بمجتمعاتنا.

و الأساس الثاني << **و إما أن يرفع بصره نحو السماء**>> [1] و في هذه الحالة نجده أن الإنسان يملأ وحدته بهذه الأفكار و يبحث عن سمو الروح في عالم الحقيقة , فهذا الإنسان المسلم عليه أن يرفع بصره نحو عالم مجهول يحاول هو أن يسأل, ينقد, يفكر, يجرح, يتحرك, يكسر الأوهام , يبني الأفكار , يحلق عاليا, و هذا هو حال كما قال مالك بن نبي << **الرسول صلى الله عليه و سلم :صاحب الدعوة و الرسالة ,أي ذلك الإنسان الذي يملك أفكارا يريد تبليغها إلى الناس** >>[2]. و لكن القارئ اليوم يريد منا أمثلة نوعا ما تكون واقعية بالرغم من أن الأنبياء هم واقع مرت به البشرية حيث حملوا لواء الدين و الإصلاح, لكن لكي نبعث الأمل من جديد لأن الإنسان الغربي عندما نكلمه عن هذا النوع من الصنف يرتابه نوعا من الحيرة و عدم التصديق و كأنه في عالم آخر. و لكن لكي نرجعه إلى واقعنا اليوم نأخذ دليلا على ذلك: و لكنه للأسف هو من نوع الإنسان الغربي,و لكنه قدوة لنا في تحطيم و بناء الإنسان "**ديكارت**" الذي قلب الوجود الإنطولوجي من مقولة واحدة, قلب بها الفلسفة و الإنسان معا في قوله: << **أنا أفكر إذن أنا موجود** >> فدليل وجوده هو مدى تفكيره , ففكره هو الضامن لوجوده, لذلك نجد أن بعده قد قامت الفلسفة الغربية و الإنسان الغربي من حالة الجمود و الركود إلى الفعالية و الحركية و من حالة التخلف إلى التطور , فإن كان ديكارت قد بقى على حسب الروايات شهرا كاملا و هو بعيد عن داره و مقره يعاني جراح التفكير خائفا من سلطة الكنيسة بسبب أنه رفع نظره إلى السماء , و إن كان "**ماركس**" قد باع حذاءه من أجل أن يثبت على أفكاره و كان فكره من أجل عالمية قد انتشرت إلى كافة الاتجاهات شمالا و شرقا و جنوبا و غربا بل الأدهى و الأمر أن لها معتنقين من ذوينا فماذا قدمنا نحن في هذا العالم المليء بالموجات؟ هؤلاء المثقفين الذين يتشدقون بعالمهم الخاص بهم , بل إنهم يعيشون حياة الأسياد و الإنسان الذي يوجهون له خطاباتهم يعاني من جميع الأزمات أزمة في فكره و في سلوكه و في سياسته و اقتصاده بل يعاني حتى من أزمة أكله و غذائه و مشربه فهل نعي الأمر؟.

---

(1) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ،ص17.

(2) نفسه:ص18.

وإن هذه القطبية المزدوجة التي وضعها شاهد القرن للتوجه النفسي يتجلى في قوله << **أفمن يمشي مكبّا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم** >>[سورة الملك 22].

فان هذا النوع من المشي كظاهرة سلوكية اجتماعية, تعني أن هذا الإنسان مزدوج الحركة و النقل فهو على غير حال واحد فهو مرة منكبا على غرائزه و شهواته, و تارة يحاول أن يصعد و يرفع مستواه, و هذا هو حال الإنسان وفق جانبي جانب ملائكي و جانب حيواني و شيطاني و هذا ما يؤكده الخطاب القرآني حيث يقول عز وجل << **و نفس و ما سواها فألهمها فجورها و تقواها قد أفلح من زكاها و قد خاب من دساها** >>[سورة الشمس 7-10]و هذا الإنسان هو بين جانبين و عالمين عالم التقوى و عالم الفجور .

ويعطي لنا مالك بن نبي مثالا حول هذه المعطيات للتمحور حول الشيء حيث يقول<< **فروبنسون كروزو يتغلب على كآبة الوحدة بالعمل, و خلال هذا الوقت فإن هذا عالم أفكاره كله يتركز حول شيء: إنها الطاولة التي كان يريد صنعها لنفسه**>> [1]فهذا المثال يدل على اهتمام الإنسان بالأشياء فقط حين أن هناك إنسان يبحث عن نوع آخر من عالم البحث إنه يبحث عن عالم أفكار حيث تصوره لنا مالك بن نبي<< **حي بن يقضان لا يتغلب على كآبة الشعور بالوحدة لصنع طاولة, بل ببناء الأفكار و اكتشافها إنه عالم لا يتجدد فيه الزمن لصالح شيء ما** >>[2].

و بهذا يكون هذا الإنسان تائها بين جانبين جانب يريد البحث عن عالم الأشياء و عالم يريد الإنسان البحث فيه عن أفكار وهذا ما قام به حي بن يقضان بالبحث عن الفكرة التي تجعل الإنسان إنسانا و تصبغه بصبغة إنسانية هذا هو حالة الإنسان الذي من المفروض أن يكون في عالم اليوم إنسان يبحث عن الفكرة لأن الفكرة تدوم و تبقى, بينما الأشياء تنقضي و تضمحل .

بل إن الأشياء من يبحث عنها إلا الإنسان الذي دفن أفكاره و نظرياته لأنه لم يبحث عن دورها و فاعليتها بل كانت من أجل حل مؤقت و هذا هو حال الإنسان الأول الذي نجده قد كانت الفكرة حلته و كانت روحه تدفعه إلى بناء حضارة و هي حضارة لم يسبق إليها مثيل و هذا التاريخ الإسلامي كفيل بذلك فيقرر لنا كيف كانت حالة هذا الإنسان الذي غلب منطق الفكرة في بناءها و تأسيسها بينما بقي إنسان ما بعد الموحدين يعاني من جميع الأمراض المزمنة و التي حلت عليه بعده أسباب لا داعي إلى ذكرها.

---

(1) مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي,ص21 .

(2) نفسه:ص22 .

و لقد وضع مالك بن نبي ثلاثة مراحل يمر بها الإنسان في ثلاثة عوالم مختلفة المرحلة و الخصوصية, فكل مرحلة وطابعها التي تمر وفق قوانين ثابتة حيث يقول : << **العمر الذي يكتشف فيه تلقائيا عالم الأشياء , و هو يلعب بأصابعه و بمصاصته**>> [1].

و هي مرحلة الطفولة الأولى منذ ولادته وخروجه إلى هذا العالم.و المرحلة الثانية<<**العمر الذي تكتشف تدريجيا عالم الأشخاص, و هو سيتعرف فيه على وجه أمه بادي الأمر**>>[2].و هو بذلك يتعرف على عائلته و أسرته و ما يحيط به من هذا العالم المتعدد و المتنوع للأشخاص, إما المرحلة الثالثة يقول فيها:<<**العمر الذي يكتشف فيه أخيرا عالم الأفكار**>>[3]و بذلك يكون أن الإنسان قد مر بثلاثة عوالم مختلفة عالم الأشياء و عالم الأشخاص و عالم الأفكار أخيرا.

و بذلك يكون قد كوّن حياة وفق هذه المراحل, و تعتبر الأفكار هي المرحلة المهمة في حياة الإنسان حيث يقول في هذا الصدد: << **الأفكار وسيلة اندماج الفرد في المجتمع** >> [4]فالأفكار هي وسيلة لاندماج هذا الكائن الحيوي و هي الطريق و البوابة لدخول حضن الحياة و بذلك تكون الأفكار جنبا إلى جنب مع عالم الأشياء و عالم الأشخاص حيث يقول <<**إن الأفكار تقاس مع العوالم الثلاثة جنبا إلى جنب و يتفوق إحداها على الأخرى,وفق نمط الثقافة**>> [5].

فالطفل الذي يولد في أسرة متعلمة ليس مثل الطفل الذي يولد في أسرة غير متعلمة, و فيه نجد أن حتى الإنسان يختلف مع اختلاف الثقافة التي ينهض عليها بداية من الأسرة فإن كانت الأسرة لها توجه ماديا فإن الطفل بطبيعة الحال سوف يكون له نفس التوجه و بذلك يصدق هذا حتى عن المجتمع, فالمجتمع اليوم يبحث عن الأشياء فعالم الأفكار فيه قد اندثرت إن لم نقل قد ماتت!!! .

فلكل مجتمع و توجهاته على حسب هذه العوالم الثلاثة فإننا نحن اليوم نعيش مجمتع ماديا على حسب حركات هذه العوالم.

---

(1) مالك بن نبي:مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي,ص30.

(2) نفسه:ص30.

(3) نفسه:ص26.

(4) نفسه:ص26 .

(5) نفسه:ص26 .

و في المرحلة الأخيرة التي يمر بها هذا الإنسان يقول الفكر البنيوي << **الشيخوخة هي انحدار من عالم الأفكار إلى الأشخاص إلى الأشياء** >> [1] و هذا هو حالة الإنسان من عالم إلى عالم آخر فحتى الحقيقة القرآنية تدعم هذا الطرح حيث يقول عز وجل << **ثم جعل من بعد قوة ضعفا** >> [سورة الروم 54] و هذا هو حال الإنسان بصفة عامة, نحن نؤكد أنه على المجتمع بكافة أطيافه و هياكله أن يكون لعالم أفكار مرحلة شاسعة في حياتِنا كلها إلاّ أن هذا الأمر بعيد التحقق, لأن هذه ميزة الحضارة فمرّة هنا وهناك, ولكن نريد أن تتحقق في مجتمعاتنا, لأني لا أريد أن أقول كما قال قائل من قبل << **ليت أمي لم تلدني** >> لكي لا أرى هذا الإنسان العربي المتخلف التائه, المريض المسكين, الضّعيف.وبذلك ونحن أمام هذا الواقع ندفع الضريبة لمجرد دخولنا لهذا المجتمع و في هذا الصدد يقول شاهد القرن: << **الفرد يدفع ضريبة اندماجه الاجتماعي و كلما كان المجتمع مختلاً في نموه, ارتفعت قيمة الضريبة** >>[2].

فنحن اليوم يدفع الفرد ليس بمجرد مطالبته حقوقه بل بمجرد انضمامه في الجماعة التي قال عليها الدين الإسلامي بأن في الجماعة خير و في الفرقة شر و لكن ماذا علينا أن نصنع إن كانت الجماعة مريضة ؟ و الفرد هو أيضا اخطر مرضا !! فالأفراد هم اليوم يدفعون ضريبة اتصالهم بالمجتمع و اندماجهم إليه, لماذا ؟ لأن مؤسسات هذا المجتمع مريضة (الأسرة, المدرسة, المسجد, الإعلام,) كل هذه المؤسسات التي عوض هي من تبني تكامل القيم التي يجب أن يحققها الإنسان في عالم معولم أصبحت فيه الأسرة الواحدة هي متعددة الأنماط نجد في مجتمعاتنا اليوم من هو سلفي متفتح و سلفي متشدد و آخر لا هو سلفي من نوع الأول و لا من الثاني و غير ذلك من الأوصاف المريضة,ونجد أيضا من الباحثين الذين هم عوض أن يكونوا قدوة في المجتمع من مازالو ينتقدون في آحاديث البخاري و الآخرين يتباهون بالفكر الغربي و يحاولون إسقاطه على مجتمعاتنا فأي ثقافة هذه و الأدهى و الأمر أننا نجد هؤلاء الباحثين من التيار الفلسفي, الذي هو من يجمع ولا يفرق يحاول أن يجد دائما الحل لهذا الإنسان الذي هو اليوم ممزق بين تيارات فكرية جديدة لم نسمع عليها من قبل .

لذلك كان مالك بن نبي يلح على المسلم يحمل دائما فكرة الخير ونبذ البشر لبناء هذا المجتمع الذي يحاول يجعل فيه عالم الأشياء تحت عالم الأفكار, فنحن اليوم نعيش مع الإنسان يبحث فقط عن المادة, يتلذذ بشهوات غيره يريد فقط الأشياء و ما يزيد الجرح هي مستوردة من العالم الغربي فأي إنسان هذا !!!

هذا هو إنسان ما بعد الموحدين الذي تكلّم عنه المفكر مالك بن نبي .

---

(1) مالك بن نبي:مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي,ص26.

(2) نفسه: ص 34.

و باختصار إن الإنسان في فكر مالك بن نبي لقد لقي حظا كبيرا من فكره, وهو الإنسان الذي تقوم عليه الحضارة و هو المعامل القوي في المعادلة الحضارية البنيوية هذه الحضارة التي هي في نظره ليس تعلّقا برونق الكلمة ولا هي أيضا خضوعا و إجلالا لمفهوم يسمى الحضارة, إنها هي ضرورية وجودية كالماء: إما أن نرتشف منه أو أن نموت عطشا.

و بذلك تكون المنظومة الفكرية لمالك بن نبي قد قامت على فلسفة الإنسان, وفق أفكار تقوم على تفاعل الفكرة الدينية المتمثلة في الروح, مع منطق فلسفة علم النفس و في هذا يقول مالك بن نبي على دور هذه العلوم الإنسانية لإعداد هذا الإنسان يقول في هذا الصدد << **إن العلوم الأخلاقية و الاجتماعية و النفسية تعد اليوم أكثر ضرورة من العلوم المادية ,فهي تعدّ خطرا في مجتمع مازال الناس يجهلون حقيقة أنفسهم** >>[1].

وفق مراحل الإنسان الحياتية مع ضرورة تغير الإنسان بل نقول تغير فكر الإنسان هذا كله من أجل خدمة الإنسان المسلم, و إرجاعه إلى الطريق الحضاري.

ولكن كيف ذلك ؟.

يلزمنا مالك بن نبي لكي يركب إنسان هذا القرن طريق الحضارة عليه أن يؤثر بثلاثة مؤثرات أولا:بفكره ,ثانيا: بعمله, ثالثا: بماله.

و لكي نصل إلى أن نكوّن إنسان مؤثرا في المجتمع عليه أن يقوم هذا التأثير على فكرة التوجيه, هذه الفكرة هي أيضا لقيت اهتمام كبيراً من فكر مالك بن نبي لأنها يراها ضرورية لقيام وعي حقيقي لإنسان يعي بهدفه و يعي بوجوده و منطلقات عمله, فما معنى هذه الفكرة و نقصد بالذات فكرة التوجيه؟ وما هي مكانتها في البناء الحضاري؟.

المبحث الثاني: فكرة التوجيه و دورها في البناء الحضاري.

أولا:مفهوم التوجيه

تعتبر فكرة التوجيه فكرة هامة للخروج من التخلف الذي تعانيه المجتمعات العربية و الإسلامية لكونها آلية إستراتيجية و وسيلة فعّالة لتحقق الإقلاع الحضاري.[2]

---

(1) مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي, ترجمة عبد الصبور شاهين, دار الوعي,ج1, الجزائر ط1 2013 ص38.

(2) حسان بركان: الرؤية النقدية لفلسفة التنمية عند مالك بن نبي, منشورات مخبر جوار الحضارات و العولمة2015, ص204 .

و لقد وضع هنا مالك بن نبي لتوجيه ثقافتنا و عملنا و رؤوس أموالنا, فهي مرحلة هامة و ضرورية لأي إقلاع حضاري, فلا يمكن أن نؤسس ثقافة عالمية وطنية و محلية من دون توجيه لها, و هي على حسب تعريف مالك بن نبي: << **قوة في الأساس, وتوافق في السير ,و وحدة في الهدف, فكم من طاقات و قوى لم تستخدم ,لأننا لا نعرف كيف نكتلها!** >> [1]

فمعنى التوجيه أن يكون لدينا قوة في التأسيس, حصانة و متانة في القاعدة توافق وانسجام و تفاهم وتعاون على تحقيق الأهداف السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية لماذا؟ لأن هناك طاقات و قوى عقلية همشت بسبب لم يكن لدينا تخطيط مسبق لهذه الثروات العقلية, وهذه هي مبلغ الخطورة في دولنا العربية في أي عمل تنموي سواء فكري أو اقتصادي أو ثقافي نجد أننا تجاهلنا الطاقات الموجودة في بلداننا و اعتمدنا على غيرنا في السيطرة و العمل فهل هذه الدول سوف تصنع التغيير؟.

كذلك إن فكرة التوجيه تعمل على إقامة دول قوية في جميع المجالات و لأننا أهملنا هذه العملية في خطواتنا التنموية, كانت لدينا هشاشة سياسية وثقافية فاخترقت دولنا في جميع الميادين فأصبحنا كما يقول مالك بن نبي أمام هذا الوضع << **طاقات و قوى ضاعت فلم تحقق هدفها, حين زحمتها قوى أخرى, صادرة عن نفس المصدر,متجهه إلى نفس الهدف** >>[2].

و بذلك لكي نصل إلى تكوين طريق الحضارة علينا أن نسعى إلى العمل وفق خطة منظمة لكي نصل إلى أهداف منظمة و متناسقة تتماشى مع جميع الأهداف و الغايات من دون تغليب جانب على جانب آخر, أو تهميش طرف على طرف آخر, و لكي نكون واقعيين في طرحنا اليوم تشهد الدول خاصة العربية خطابا لما يعرف بالأقليات و هذا الخطاب خطاب ديني ,سياسي ,اجتماعي,اقتصادي , و بدأت هذه الأقليات تتحرك لكي تثبت وجودها على أرض الميدان لأنها همشت من طرف السلطة و الدولة, زيادة على ذالك استعملتها الدول العظمى في إثارة الفوضى في بلدانهم, فنلاحظ أن فكر مالك بن نبي و خاصة فكرة التوجيه أنها تسعى إلى تكثيف جميع الجهود البشرية وفق انسجامها و تنوعها لخدمة الهدف الحضاري, فالفلاح و الطبيب و المثقف و المعلم و التجار هم سواعد البناء حيث يقول << **فهناك ملايين السواعد العاملة و العقول المفكرة في البلاد الإسلامية, صالحة لأن تستخدم في كل وقت**>> [3]و لكي لا يقع التعارض الذي هو موجود اليوم في سياستنا فنجد أن في المنظومة الواحدة صراع بين جميع أطرافها فمثلا اليوم: نجد صراع بين الأستاذ و المدير بين النقابة و الوزارة التربوية بين هيئة

---

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة,ص 117 .

(2) نفسه: ص 117.

(3) نفسه: ص 117.

أولياء التلاميذ و بين المدرسة و هكذا من يدفع الثمن الطالب يقول مالك بن نبي لتجاوز هذا الصراع: << **و المهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل, المكوّن من ملايين السواعد و العقول , في أحسن ظروفه الزمنية و الإنتاجية,المناسبة لكل عضو من أعضائه.** >> [1]

و بهذا نستطيع أن نتجاوز هذا الصراع المحتدم بين هذه الأعضاء الموجودة في المجتمع, فلكل عضو دوره و هدفه الخاص به, و لكن علينا أن نحقق هدف واحد هو بناء المجتمع, لأن الناظر اليوم إلى واقعنا نجد وللأسف عدم الشعور بهذه المسؤولية التي هي في عاتقنا فنحن اليوم نجد أن كل عضو في مجتمع يتهرب عن آداء وظائفه لسبب أو لآخر فذلك يدعو مالك بن نبي إلى أن يكون كل ضروب النشاط في أي وطن, توجه نحو تحقيق هدف حضاري,ويجب أن يكون هدفنا نحن أيضا ضروريا . فذلك ينبغي علينا أن نسعى إلى تكوين لدينا حس على ضرورة التغيير و ضرورة العمل وفق توجيه جميع مواهبنا و أفكارنا إلى خدمة المجتمع و خدمة الإنسان في النهاية .

ثانيا: أهداف التوجيه

لقد سعى مالك بن نبي في مشروعه الحضاري أن يجعل من أي مشروع سواء كان ثقافيا أو سياسيا أو اقتصاديا حاضنةً له عبر توجيه أفكارنا و أعمالنا و فق هدف مشترك يسعى الجميع للوصول إليه, عبر قوة العمل الاجتماعي الذي يرتكز عليها هذا المشروع الحضاري.

لكن إن الناظر إلى هذه الفكرة و أقصد فكرة التوجيه نجد أنها تحتاج إلى محددات و ضوابط, فهل فكرة التوجيه عند المسلم هي نفسها عند الآخر ؟ و ما هي طابعها ؟. لأن توجيه مشروع معين يقتضي الوقوف أمام جميع الاتجاهات و الأيديولوجيات المختلفة و المذهبيات المتنوعة و خاصة نحن في عالم الكوكبة و الأمركة الكل يريد فرض السيطرة و الهيمنة هذا ما ينبغي أن نطرحه على المشروع الحضاري البنيوي.

و لكن مالك بن نبي و في نظرته كان وفق الزاوية و النظرة الماركسية و الاشتراكية حيث كانت إجاباته عن خواطري الفكرية وفق زاوية تحمل في طياتها نبرة تحمل إيحاءات ماركس حيث يقول بن نبي في هذا الصدد: << **تكمن أساسا فكرة التوجيه الإنسان الذي تحركه دفعة دينية, و بلغة الاجتماع: الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى (الجماعة) و معنى الكفاح** >>[2].

---

[1] مالك بن نبي:شروط النهضة ص117.

[2] نفسه: ص118 .

فالصنف الأول من كلامه يوحي بمدى تفاعل الفكرة الدينية التي يعتبرها مالك بن نبي ضرورية في مشروعة الحضاري و هذا مبلغ الإيحاء الإسلامي في فكره الإصلاحي,أما الصنف الثاني فنرى فيه أن مالك بن نبي قد اتفق مع ماركس في هذه النقطة لأن كيليهما يؤكد على ضرورة التناقض و الصراع و الكفاح الاجتماعي لأنه هو الذي يحرك المجتمع و بطبيعة الحال إن القواعد الماركسية قد قامت على معنى الجماعة و على معنى العمل و على مقصد الكفاح, هذا ما يعرف قانون صراع ووحدة الأضداد و المتناقضات الذي يقوم على الجدل والتفاعل بين أطراف المجتمع الواحد .

فالتوجيه البنيوي قام على فكرة الجماعة و على محرّك الفكرة الدينية التي تدفع بهمة الإنسان الى ضرورة العمل و الإنتاج و الحفاظ على روح الجماعة الواحدة .

و لكن الفكرة الدينية بالرغم من أنها تكسب الفرد معنى الجماعة و هذا فيه نظرة من زاوية واحدة,فالفكرة الدينية هي أيضا تعطي للفرد طابعا نفسي خاص بمعنى الإنسان كمفرد وليس كجماعة,و هذا ما قامت عليه الفلسفة الوجودية التي أرادت أن تصنع إنسان أطلق عليه "**سارتر**" إنسان مشروع, الذي يلغي كافة القيود الاجتماعية و الحتميات الدينية لكي يصنع بنفسه مشروعا وجوديا, فكون مالك بن نبي قد مال طرحه إلى الإنسان الاجتماعي نجد أن الإنسان وحده أيضا قادرا على صنع مستقبله و وجوده وفق لما تريد نفسه هو لا غير.و بهذا كانت الوجودية التي خلقت في الفلسفة الغربية مجتمعا قويا في جميع المجالات بالرغم من انه هناك من أراد أن يسقطها على العالم العربي مثل "**عبد الرحمن بدوي**" و لكن دون جدوى!!!

إذاً تسعى فكرة التوجيه إلى الحفاظ على جميع مؤثرات الإنسان في جميع الميادين لكي لا يذهب هذا التأثير من دون تحقيق أهداف واضحة و لكن يسأل البعض عن أهداف فكرة التوجيه يقول في هذا شاهد القرن: << **التوجيه هو تجنب هذا الإسراف, في الجهد و في الوقت** >>[1].

فنلاحظ هنا أن الفكر البنيوي أراد من فكرة التوجيه أن تعمل على الابتعاد عن التبذير, في العمل و الجهد فنلاحظ أن كل أعمالنا اليوم سواء الثقافية و السياسية و الاجتماعية ينقصها التخطيط المسبق و التوجيه لهذه الأعمال فحتى المحافل الأكاديمية ينقصها هذا التوجيه فما نلاحظه اليوم أن هذه لم ترقى إلى مستوى التوجيه و دليلنا على ذلك عدم تأثيرها واقعيا و في المجتمع, فنلاحظ أن أعمالنا تسير من دون أي تخطيط مسبق أو الوصول إلى هدف معين ففي بعض الأحيان نقول أنها لو لم تقم لكانت أفضل لأن حالنا هكذا أفضل.

[1] مالك بن نبي:شروط النهضة,ص177.

وبعد إقامة هذه الحافل الأكاديمية التي أصبحت تقام لا لتوجيه الأفكار و تثمينها بل لهدم الأفكار و إثارة النعرات الفكرية*,و تهدف فكرة التوجيه أيضا إلى المحافظة على الوقت و العمل وفق ما تقضيه الثواني و الدقائق و الساعات و الشهور و السنوات و القرون,و لا أريد أن أتكلم عن أهمية الوقت في حياة الإنسان كأملاً نريد صناعته, بعيدا عن الواقع المرير الذي يعيشه الإنسان المسلم اليوم, و ما وصل إليه من إضافة الوقت و التلاعب به.

إذن فكرة التوجيه فكرة و خطوة هامة في البناء الحضاري تهدف إلى بناء إنسان حضاري يسمو إلى العمل والجهد و النشاط لان ما يعاني به الإنسان المسلم اليوم هو التوجيه أفكارنا و سلوكاتنا و أعمالنا لكي نصل إلى ما ذكره بن نبي << **يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود** >>فالتوجيه هنا يسعى إلى أن يكون لدينا خط من تاريخ البشرية من تاريخ الإنتاج الحضاري العالمي, و لكي نساهم في صنع هذا الإنتاج علينا أن نوجه جميع أفكارنا لأن مشكلة اليوم هي مشكلة توجيه أفكار إلى ما تخدم هذا الإنسان, لا إلى ما يخدم ذواتنا ومصالحنا و إيديولوجياتنا و مذاهبنا فعلينا أن نغير مجرى التفكير لكي نغير العالم فهل نعي؟

ففكرة التوجيه أخيرا لها أهمية بالغة في المشروع الإصلاحي الاجتماعي فمدى وجهنا طاقاتنا و أفكارنا و أعمالنا و خاصة فلسفاتنا مدى كان تأثيرها بالغة الأهمية في واقعنا اليومي .

و لقد أشار بن نبي إلى هذا عندما قطع إلزاما أن يوجه الإنسان ثقافته و عمله و ماله لخدمة هذا المشروع, و لا يمكن نجاح طرف إلا بطرف آخر.

فنلاحظ أن الفكر البنيوي قد اهتم بالإنسان ليس كجسم, بل فكرًا, ثقافةً, سلوكًا, حضارةً ثم أراد من هذا الإنسان أن لا يعيش حياة البهيمة من دون توجيه و توجه و قصد لكي يؤسس لنفسه كرامة على وجه الأرض و إلا و كما قال المصلح "**عبد الحميد كشك**"<< في إحدى خطاباته >>إن لم نعش بكرامة على وجه الأرض,فتحت الأرض خير لنا.

وقد اهتم مالك بن نبي على مشروعا هاما قد وجه فيه أفكاره إليه و هو التوجيه الثقافي و دعا إلى أن تلعب الثقافة مع العمل و المال أدوار مهمة في حياة الإنسان, إلا أننا سوف نركز على التوجيه الثقافي لما للثقافة دورا في حياة الإنسان و خاصة الإنسان العربي و في ظل المستجدات الراهنة (ثورات عربية,تدخلات أجنبية,انهيار مفاهيمي سلوكي,أخلاقي,ثم حضاري). و هذا ما لثقافة دور فيه لأنه وما من إنسان إلا و الثقافة كعضو من أعضائه تحيا و

* و هذا أيضا ما نجده عند محمد الغزالي عندما عاب عن الإنسان المسلم لغياب فكره التوجيه فقال << أحيانا نتحرك في موضعنا,و أحيانا نسير في طريق مسدود و أحيانا نضرب عن يمين و شمال و كان بيننا و بين الصراط المستقيم خصومة >> هموم داعية ,ص08.

تموت معه. و هذا ما سوف يتعرف عليه في عالم الثقافي الذي تصوره شاهد القرن في مشروعه الحضاري ولكن كيف تصور مالك بن نبي الثقافة في مشروعه الحضاري؟

فالثقافة هي الحاضنة الأساسية لجميع المشكلات التي يعاني منها الإنسان المسلم, لذلك سوف نقوم بتنقية و تحليل هذا المفهوم الحضاري و فق لما تصوره مالك بن نبي, فهل هذه القراءة كانت وفق الرهانات الحضارية ؟ وهل كانت وفق تطلعات الإنسان المسلم؟ الذي هو اليوم تائها في عالم لا يعترف إلا بالإنسان المثقف بكل ما تحمله الكلمة من معنى هذا ما سوف نتعرف إليه .

المبحث الثالث : المشروع الثقافي عند مالك بن نبي

أولا: مفهوم الثقافة

بعدما تعرفنا على المفاهيم التي ارتكز عليها المشروع الحضاري لمفهوم الإنسان و مفهوم التوجيه الذي أعده مالك بن نبي لتوجيه جميع المنطلقات الفكرية كالثقافة ,و قبل التعرف على كيفية التوجيه البنيوي الثقافي لا بد أولاً أن نتعرف على مفهوم ضروري و هو مفهوم الثقافة.

و إنه عندما نكون بصدد معالجة هذا المفهوم,فإنه يصعب علينا تحديد مفهوم دقيق للثقافة نظراً إلى ارتباط هذا الأخير بمعايير لغوية و أخرى تاريخية و أخرى أنثروبولوجية .

و الثقافة كمنظومة قد عرفت دراسة نمطية لمختلف العصور التي مرّ بها التفكير البشري, و لقد كانت صورة الثقافة على شكل نعت و وصف فكانت الثقافة مثل التراجيديا و الشعر عند الإغريق.

و إننا سوف نحاول أن نقدم مفاهيم للثقافة على مختلف اللغات فان الثقافة حسب :

*– **اللاتينية**:كانت الثقافة تعني الزراعة, تهذب النفس مثل الفلاحة, عندما نقوم بقلع الأعشاب الضارة و بغرس الأشجار.

*– **الإغريقية**: تعني الصناعة, صناعة الأدوات في تدبير المنزل و صناعة قوانين المجتمع .[1]

أما مفهوم الثقافة في القواميس العربية فأنها تعرف الثقافة : فالثقافة عند "**جميل صليبا**" ثقف الرجل ثقافة أي صارا حاذقاً فثقفت الشيء أي حذّقته, فالرجل المثقف:هو الحاذق الفهِم, و غلام ثقف أي ذو ذكاء و فطنه و المراد أنه ثابت المعرفة مما يحتاج إليه,و الثقافة بمعنى الخاص هي تنمية بعض الملكات العقلية أو تسوية بعض

[1] فاطمة فرفودة: مفهمة الثقافة و ممكنات فلسفة الثقافة, الجزائر ,2015 ,ص23 .

الوظائف البدنية, و هي كل ما يتصف به الرجل الحاذق المتعلم من ذوق و حسن انتقادي و حكم صحيح[1],فلسان العربي يعرف الثقافة يقال ثقف الشيء و هو سرعة التعليم<< و يقول **"ابن دريد"** : << **ثقفت الشيء حذقته**>> و القول أن فلان ثقف أي حذق و ذكي.[2]

و إني لا أريد أن أتوغل كثيرا في هذا المفهوم لأنه و كما قلت سابقا لارتباطه بعدّة اعتبارات تاريخية و جغرافية و إنسانية, و لكن سنحاول تقديما مفهوم عام لهذا المفهوم عمليا لأن ما يحتاجه الإنسان العربي ليس مفهوم الثقافة بقدر ما يبحث عن كيفية تحقق هذا المفهوم عمليا سلوكيا و هذا هو واقع أمرنا أننا نسير يميناً و شمالا,و الثقافة تنهار يوما بعد يوم والفلسفة العربية تبقى تبحث عن مفاهيم نظرية فنحن بقدر ما أننا نحتاج هذه المفاهيم بقدر ما أننا نحتاج إلى تأسيس لهذه المفاهيم.

و لقد وردت كلمة الثقافة في لغة ابن خلدون في مقدمته و لكن بصورة أدبية بوصفِها مفردة لغوية دون الوقوف عند كلمة ثقافة لوصفها مفهوما و بتقديرها ظاهرة اجتماعية [3].

و لقد ندرك أن الحالة التي كانت تعرف بها الثقافة وفق المفاهيم المقدمة أنها كانت عبارة عن حالة من التطور و التهذيب و بتشكيل مختلف الأنماط التي تميز الإنسان بمعنى الحالة النشطة التي يقوم بها هذا الكائن الحذق و الذكي.

و إن الأمر الذي بادر من الاهتمام بالثقافة ذلك المنعطف الذي اتخذه العلم في تطوراته التي عرفها هذا العلم لتطور العلوم البيولوجية و التجريبية خاصة في القرن 19 .

أن معنى الثقافة Culture معنى مجازي انتقلت إليه الكلمة الحسي الأصلي و هو معنى الزراعة أو التربية و لهذا تدخل كلمة Culture في تركيب كلمة الزراعة في الانجليزية كما تستعمل من زرع الميكروبات لكن من الناحية التي اصطلح عليها في العربية مجازا هي مأخوذة من تثقيف الرمح أو تسويته .

و لقد تغير مفهوم الثقافة بتغيير الأوضاع التي يكون سائدة في كل قرن, ففي القرن السادس عشر كفت الكلمة على حالة الشيء المحروث لتدل على فعل هو فلاحة الأرض, و بقي هذا التصور سائدا لمفهوم الثقافة إلى القرن الثامن عشرا إتخذ مفهوم الثقافة منحى يعبر عن التكوين الفكري عموما و عن التقدم الفكري الشخصي خاصة وما ينتج عنه من تطبيقات و لقد اكتسب مفهوم الثقافة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر معنى جماعيا لمجموعة الإنسانية أما في الجانب المادي في حياة الاشخاص فقد أفردت له الألمانية كلمة حضارة .

---

(1) جميل صليبا:المعجم الفلسفي, جزء1 , دار الكتاب اللساني, بيروت, لبنان ,1982 , ص 378 .

(2) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة, ترعبد الصبور شاهين, دار الوعي, الجزائر ,ط1 2013,ص19 .

(3) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة,ص20.

وفق هذا أصبح العقل التنويري يعتبر الثقافة مرادف للحضارة, نظرا للحركة العلمانية المتقدمة في تلك المرحلة و المتطورة.

و في نهاية القرن التاسع عشر بدأت تعرج عن كونها مرادف للحضارة لتصبح النقيض. فإن الصراع بين الثقافة و الحضارة محتدم لكون كل منهما له خصائص المميزة.[1]

و لقد قدّم العالم الانثربولوجي "**تايلور**" تعريفا حرك كل العقول المعرفية بحيث أن هذا المفهوم نقطة انطلاق لمجموعة من التعاريف المقدمة للثقافة فتايلور يعتبر << **أن الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يشمل العادات و التقاليد,و الفن,و العزف**>> , و زد على هذا التعريف رأي علماء الاجتماع المحدثين "**روبرت برستد**" الذي صرح قائلا :<< **إن الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه أو ما نقوم بعمله أو نمتلكه كأعضاء في المجتمع** >>[2].

من هنا نلاحظ أن هذين التعريفين نجد بينهما فرق في أن "**روبرت برستد**" اعتبر أن الثقافة هي ظاهرة مركبة لكن هذه الظاهرة بعضها فكري, و البعض الآخر سلوكي و هذا القيام بعمله لكن يكون سلوك ماديا.

و لكن تايلور أسقط مفهوم الثقافة كظاهرة تشمل طابعا تفاعليا اجتماعيا (كالأخلاق ,العرف , التقاليد , الفن) فبمجرد تكون العلاقات بين الناس بمجرد حضور ثقافة معينة.

إذاً نفهم أن الثقافة قد عرفت العديد من المفاهيم التي عجت بها إن دلّ هذا الشيء إنما يدل على ضخامة هذا المفهوم بارتباطه بعدة مسائل تدل على دلالات مختلفة .

و لقد اهتمت النخب المثقفة بهذا المفهوم و لكن هل نجد الثقافة في الفضاء الفلسفي؟.

نجد مفهوم الثقافة قد لقي اهتماما واسعا من قبل المفكرين والفلاسفة, وهذه ميزت الفكر الفلسفي فما من مفهوم إلاّ وكان أصحاب العقل و الحكمة رأي فيه, ولم تعد الثقافة محور اهتمام و حديث فقط بل أصبح الإنسان يقلق على ثقافته و هذا ما نجده عند الفيلسوف "**سيمغوند فرويد**" عندما صرّح قائلاً: << **كم يكون المرء جاحدا للجميل حسيرا النظر لو طمح إلى إلغاء ثقافة,فلو ألغيت الثقافة لما بقي شيء آخر سوى الحالة الطبيعية,وهذه يصعب تحملها أكثر صحيح أن الطبيعة لا تطلب منا أن نجد من غرائزنا, بل يرخي لها حبلا**

[1] فاطمة فرفودة:مفهمة الثقافة و ممكنات فلسفة الثقافة,ص25.

[2] مجموعة من المؤلفين:نظرية الثقافة ترجمة على سيد الصاوي,سلسلة المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب, الكويت,د ط,1997,ص9.

الحرية كاملا, لكن طريقتها و هي طريقة فعالة للغاية في تقييدنا,يقضي علينا بكل برودة و قسوة و إنما بسب هذه الأخطار التي تهددنا الطبيعة اختصرنا المسافات فيما بينما و تقاربنا و أوجدنا الحضارة. >>[1]

بمعنى أن "**فرويد**" يعتبر أنه من الغير الإمكان أن يتخلى الإنسان عن ثقافته. و التخلي عن الثقافة يعني حضور الحالة الطبيعية التي تميز أنها حالة غرائز و شهوات و بذلك يتحول الإنسان من كونه إنسان ثقافي إلى كونه كائن طبيعي يتصف وتنحل, فيه جميع ميزات الحالة الطبيعية التي تبعد الإنسان عن طريق الحضارة.

ولقد اهتم "**هوسرل**" أيضا لمشكلة الثقافة و ذلك في كتابة << **أزمة العلوم الأوروبية و الفونومولوجية الترنسدتالية** >>.

بحيث خص المؤلف الضخم الحديث عن أزمة العلوم المتجذرة, بحيث أعتبر هذا أن الثقافة و أزمتها تتمثل في أنّ أزمة العلم و أزمة الفلسفة و عدم الاتفاق بينهما هو الذي خلق ما يسمى بأزمة الثقافة, بحيث يعتبر "**هوسرل**" أن الثقافة هي ما بقي لإنسان من حق و هوية.

و لو تطلعنا و تعمقنا في عالم الفلسفة نجد أن كلمة الثقافة كان أول استخدام لها في الحقل الفلسفي مع<<**هيغل**>>بحيث نجده يقرر بذلك لإعطاء الثقافة و جهة معينة من خلال أن << **الفلسفة ترادف العلوم الإنسانية, يتضمن شروط وجودها في الثقافة, و ذلك أن وجود الروح له ارتباط أساسي بفكرة الثقافة.** >>[2]
و يقول أيضا "**هيغل**" << **أن روح هذا العالم إنما هو الماهية الروحية المنتقدة بوعي الذات, و عليه فان ما به يكون للفرد هنا صلاح و حقيق إنما هو الثقافة فطبيعة الأصلية و جوهره الصادقان, إنما هو الروح لا اغتراب الكينونة الطبيعية و هذه الفردية تثقف ذاتها و لا يستقيم لها كيان حاق إلا بذلك و على قدر ما تزيد تكوينا و ثقافة لذلك الفردية التي تتكون و تثقف إنما هي في حال سيرورتها من جهة ماهية موضوعية و كلية** >>[3]
و بهذا يكون "**هيغل**" هو من أطلق مصطلح الثقافة في البساط الفلسفي بحيث ربط الثقافة بفكرة الروح التي هي معروفة عند "**هيغل**".

وكذا أيضا الفيلسوف الألماني "**ايمانويل كانط**" له كتاب ميتافيزيقا الأخلاق في هذا النص سوف ندرك و نستنتج انه يشير إلى الكلمة بدقة لكنه تكلم في المفاهيم التي يقوم بها كالتثقيف و التهذيب حيث يقول "**كانط**": << **و ثالث تلمس من نفسه موهبة يمكن ان تجعل منه مع الشيء من التثقيف و التهذيب أمرا نافعا من نواحي**

---

[1] فرويد: مستقبل الوهم,ترجمة:جورج طرابيشي,دار الطبيعة,بيروت,د ط,دس,ص24-21.

[2] هانر جورج غادامار: الحقيقة و المنهج ترجمة: حسين ناظم على حاكم صالح,دار أويا للطباعة و النشر و التوزيع و التنمية و الثقافة,طرابلس,ط1, 2007, ص60 .

[3] هيغل:فنولوجيا الروح,ترجمة :ناجي العويلي,مركز الدراسات الوحدة العربية,بيروت,ط 12000,م ص 510-520.

كثير, غير أنه يرى نفسه يعيش في ظروف ميسرة و يؤثر أن يجري وراء اللذات بدلا كان يدخل جهدا في نفسه استعداداته النظيرة البعيدة و يحسنها عندئذ يرى أن الطبيعة بحسب القانون العام كهذه لمكنها حقا أن تظل باقية حتى ولو ترك الإنسان كما يفعل سكان بحر الجنوب موهبته تصدأ و لم يفكر إلا في توجيه حياته إلى الفراغ, و اللذة و النسل و الاستمتاع على و وجه الاجمال و بما هو كائن و عاقل يريد بالضرورةأن ينمى جميع ملكاته لكونها نافعة ولأنها أعطت له ليبلغ ألوانا عديدة من الغايات والأهداف. >>(1)

نلخص من فكرة "**كانط**" أن على عاتق المرء وفق واجباته, أن يهتم بنفسه ويطورها عن طريق التثقيف و التهذيب ابتعادا عن الإهمال و النزوع إلى شهوات الإنسان التي دائما تعمل على إنزال الإنسان إلى واقع الشهوة والرغبة فالطبيعة مستمرة لذلك على المرء أن يحاول دائما محاولة الترفع عن جميع النزوات .

و بهذا نكون قد وجدنا أن الثقافة قد طرحت على البساط الفلسفي و كان مرحبا بها في جميع الأوساط الفلسفية فعند "**هيغل**" مرتبطة بفكرة الروح و عند "**كانط**" المسألة الثقافية مرتبطة بفكرة التهذيب و تثقيف النفس, فالثقافة إذاً كانت توجد أيضا ضمن العقول الفلسفية.

ثانيا: الثقافة كشرط من شروط النهضة عند مالك بن نبي

بعدما تعرفنا على مفهوم الثقافة في ظل الفلسفة العالمية سوف نسقط لثام الثقافة في الفكر العربي و سوف ندرس الثقافة من وجهة نظر شاهد القرن فما مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي؟ وما هي أهميتها ؟.

بطبيعة الحال نجد أن مفهوم الثقافة و كما ذكرنا سابقا كان مفهوم قد ارتبط بعدة معايير تاريخية و أنثروبولجية و غيرها من المفاهيم, لذلك سوف نجد أن مالك بن نبي أيضا سوف ينظر إلى المفهوم من وجهة نظر عملية أكثر منها مفاهيمه, من خلال صياغة هذا المفهوم تاريخيا يقول مالك بن نبي:<< **بجب علينا أن نحدد الثقافة في ضوء تصورنا لوضعها التاريخي, أي يوصفها حركة مستمرة (صيرورة) فان التاريخ منعطفات هائلة خطيرة يتحتم فيها هذا التعريف**>>(2) .

فمن خلال هذا القول يؤكد مالك بن نبي أن الثقافة قد عرفت العديد من المنعطفات و التغيرات التي بطبيعة الحال سوف تؤثر على هذا المفهوم, و تعتبر النهضة الإسلامية من بين تلك المنعطفات التي يراها مالك بن نبي محطة أساسية في تغيير هذا المفهوم, و ذلك من خلال مرحليتين يؤكد مالك بن نبي :

(1) امانويل كانط: أسس مسافيريقا الاخلاق,تر: عبد الغفار مكاوي,دار الفنون للطباعة و النشر , القاهرة,د ط ,د س ص64.

(2) مالك بن نبي:مشكلة الثقافة,ص70.

الأول: نحددها في ضوء حالتنا الراهنة, و نقصد بذلك الثقافة.

الثاني: تحددها في ضوء مصيرنا[1].

فإن الجيل الحالي حسب مالك بن نبي موحد فاصل بين نموذجين لعهدين : عهد الكساد و الخمول, و عهد النشاط و المدينة.

و يؤكد مالك بن نبي على أن موضوع النهضة و الحضارة يحتاج إلى أن نتصورها وفق مبحثين حيث يقول مالك بن نبي:

1) تلك التي تصل بالماضي: أي خلاصة التدهور و الانحطاط.

2) تلك التي تصل بخمائر المصير و جذور المستقبل.[2]

و أن الكلام عن الثقافة هو نفسه الحديث عن النهضة التي هي من أول واجبات إنسان ما بعد الموحدين حيث يقول في هذا الصدد << **إن من أول واجباتنا تصفية عاداتنا تقاليدنا و إطارنا الخلقي و الاجتماعي لما فيه من عوامل قاتلة و رمم لا فائدة منها**>> [3].

و لكي يستطيع الإنسان القيام بهذه التصفية لا بد له من فكر جديد, يحطم هذه الأوضاع الموروثة وفق البحث في وضع جديد و هو النهضة وفق تحديد طريقتين:

- الأولى: سلبية يفصلنا عن رواسب الماضي.
- الثاني: إيجابية تصلنا بالحياة الكريمة. [4]

هاته هي الطريقتين التي وضعها مالك بن نبي للخروج من هذا الوضع المزري وفق تصورين نقضي فيها على جميع السلبيات التي تتصل بالماضي و عاداته السلبية.

ويحاول الانسان الاتصال بمعنى الحياة التي طالما الإنسان يبحث فيها و هي الحياة الكريمة التي تضفي على الإنسان إنسانيته و إن لهذه طريقتين تاريخا حسب مالك بن نبي و بحيث يؤكد أن التاريخ الفلسفي قد صار على هذين

---

[1] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص70.

[2] نفسه:,ص71.

[3] نفسه:ص71.

[4] نفسه:ص71.

المنهجين, فوضع مثالا على الطريقة الأولى حيث يقول في هذا الصدد<< **كان توماس الاكويني يبقي الثقافة الغربية . ولو من غير قصد لتكون الأساس الفكري للحضارة الغربية و ما كانت ثورته ضد ابن رشد و ضد القديس أوغسطين إلا مظهرا للتجديد السلبي, حتى يستطيع تصفية ثقافته**>> [1].و إن "**الاكويني**" بهذا الأسلوب وفق مالك بن نبي قد نهج طريقة تفصله عن رواسب و مخلفات الماضي و أثره السلبي على العقل البشري بينما بقينا نحن في هذا الوضع مع هذه المواضيع, التي تشغل العقل العربي و إن كان هذا المصطلح مرفوض عند "**الجابري**" لأن العقل لم يتكون بعدبسبب أننا بقينا في نفس المواضيع التي لا تسمن و لا تغني من جوع, هذا الجوع الذي بقينا فيه نعاني بسبب هذه المواضع التي حركت الأقلام و اختلفت فيها العقول إلا أنها للأسف لم تحرك الواقع, هذا الواقع الذي هو أغنى من كل نظرية.

أما المثال الثاني يضعه بن نبي وفق الطريقة الثانية يقول شاهد القرن:<< **أتى بعده ديكارت بالتحديد الإيجابي, الذي رسم الثقافة الغربية طريقها الموضوعي, الذي ينمي على المنهج التجريبي ذلك الطريق, الذي هو في الواقع السبب المباشر لتقدم المدينة الحديثة تقدمها المادي**>>[2].

وفق هذا رسم ديكارت طريق الحضارة وفق مقولة التي قلبت الوجود رأسا على عقب, و قدمت للعقل الغربي طريق البحث و الأمل الذي وصل به العقل الغربي إلى طريق الحضارة و الواقع يؤكد على ذلك.بينما يصفه البعض الآخر أن ديكارت قد كان ذاتيا بحكمة و تحديده الايجابي,فهذه القراءة لديكارت (في نظري) لم تكن دراسة موضوعية لهذا العقل, فكيف يمكن أن نصفه ذاتيا في حين أننا نحن أصبحنا نمارس و ننادي بالشك الديكارتي في جميع الميادين؟.

وكما رأينا في الفصل الأول أن مالك بن بني كان متشبع بثقافة إسلامية أصلية بحيث لم يلغي الحضارة الإسلامية من هذين الطريقتين حيث يؤكد على ذلك:<< **أن الحضارة الإسلامية قد جاءت بهذين التجديدين مرة واحدة و صدرت فيها عن القرآن الكريم الذي نفى الأفكار الجاهلية البالية,ثم رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريقة ايجابية** >>[3].

وفق هذا القول أكد مالك بن نبي أن القرآن الكريم هذا الدستور الإلهي الذي رسم نهجا للقضاء على جميع هذه الأفكار البالية التي كانت في المجتمع الجاهلي و أفكاره الغير أخلاقية, و رسم طريق الفكرة الطيبة بلغة القرآن الكريم

(1) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص71.

(2) مالك بن نبي: مشكلة النهضة,ص122.

(3) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة,ص72.

الذي نادى إلى بناء إنسان صالح يسعى إلى أعمار الأرض و استخلاف الله في الأرض بالعمل و القوة و التخطيط للمستقبل و القلق عليه وفق النظرة الوجودية التي تدعو إلى خلق جميع الإمكانيات ببناء الحاضر و تصور المستقبل.

و هذا هو الطريق الحضارة و النهضة حيث يقول: << **و هذا العمل نفسه ضروري اليوم للنهضة الإسلامية** >>[1].

و لكن الناظر إلى واقعنا يجد أنه يحتاج أكثر من هذه الطرق فهو يحتاج إلى منهج التغيير إن لم نقل مناهج لان الإنسان العربي سواء في الفترة السابقة أو في الفترة الراهنة فإن الأمر خطير و أمر النهضة و الحضارة يقر علينا أن نضع جميع الحسابات وفق بصيرة حيث يقول "**محمد الغزالي**": <<**إذاً كنا على أبواب نهضة حقة فلندرس بدقة و بصيرة أسرار ما أصابنا فان العافية لا تتيسر بدواء مرتجل, و النصر لا يجيء باقتراح مرتجل إن الأسلاف تصدروا قافلة العالم بجدارة و الأحلاف ملئوا ذيل القافلة بجدارة أيضا .**>> و يؤكد أيضا للخروج من هذه المشكلة التي كتبتها أيادينا بأفكارنا المعوجة << **بعض المرض يحتاج إلى صدمات كهربائية لتصحيح وعيه, وإيقاظ ما تخدر من حسه, و المسلمون يحتاجون إلى أمثال هذه الصدمات كي يحسنوا الخلاص مما حل بهم**>> [2] !!!

وفق هذا التصور البنيوي لمشكلة الثقافة التي نظر إليها من وجهة نظر تاريخية ربطها بموضوع النهضة و اعتبرها شرطا ضروريا للنهضة حضارية تسعى إلى قيام حياة كريمة لهذا الإنسان الذي سوف يعاني من نظر مالك بن نبي إن لم نغير عالم أفكاره و عالم ثقافته.

و لقد شهد مصطلح الثقافة حسب مالك بن نبي عدة تعريفات كل حسب اتجاه موضوعه حيث يقول:<< **و هكذا وصل الفكر إلى سؤال: ماهي الثقافة؟ و لكن عن طرق مختلفة و منهج متخالفة: فجاءت وجهات النظر مختلفة أيضا لاختلاف النزعات مترجمة عن اتجاهات سياسية: فمن أجل هذا كله اختلفت تعاريف الثقافة باختلاف الزاوية التي ينظر منها إلى الموضوع**>>[3].

و بهذا اختلفت توجهات النظر إلى الثقافة بطبيعة الاتجاهات الفكرية التي يكون عليها هذا الإنسان, ووضع مالك بن نبي هذا المفهوم على حسب السياق الموضوعي الثقافي الذي يشهده هذا المفهوم, و لقد وضع

---

[1] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة, ص72.

[2] محمد الغزالي: هموم داعية,ص140.

[3] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة,ص29 .

مالك بن نبي هذا المفهوم وفق تفسيرين يعود إلى مدرستين حيث يقول في هذا الصدد: << **المدرسة الغربية: التي ظلت وفيه لتقاليد عصر النهضة, و هي ترى عموما أن الثقافة ثمرة الفكرة, أي ثمرة الإنسان**>>[1].

و بهذا الثقافة تعني أنها قائمة على فلسفة الإنسان دون المجتمع,و هناك طرح فكري آخر عكس ذلك حيث يقول: << **المدرسة الماركسية: التي ترى أن الثقافة في جوهرتها ثمرة المجتمع**>>[2] و هكذا طبعت الثقافة بطبيعة ماركسية قائمة على قيم المجتمع باعتبارها وظيفة متعلقة بالجماعة,فهي فلسفة المجتمع.

وقدم مالك بن نبي مفهوم الثقافة وفق الآراء الفلسفية مثل "**وليام اوجبرن**" و "**رالف لينتون**", لكي يتسنى حسب رأيه معرفة الاتجاهات التي سيطرت على الاتجاهات الثقافية: حيث يقول مالك بن نبي حسب التعريفين: << **يذهب رالف لينتون إلى أن الثقافة "كل" تتداخل أجزائه تداخلا وثيقا و لكن من الممكن أن نتعرف فيه على شكل بنائي معين أي نتعرف على عناصر مختلفة هي التي يكون الكل** [3] >> وفق هذا التعريف الذي قدمه ليبتون حسب مالك بن نبي أن هذا التعريف قائم على مستويين: المستوى الأول: توجد فيه العموميات التي يحدد فيها جذور الحياة الثقافية للمجتمع مثل الدين, اللغة , و التقاليد.

و المستوى الثاني: الذي ذهب إليه "**لينتون**" هو مستوى الأفكار الخاصة الناتجة عن التخصص المهني.

أما "**وليام اجبرن**": << **فانه يفرق في الثقافة بين مجالين الثقافة المادية أي مجموع الأشياء و أدوات العمل و الثمرات التي نخلقها و المجال الثاني:الجانب الاجتماعي كالعقائد و التقاليد و العادات و الأفكار و اللغة و التعليم** >>[4] **.**

و لكن هذه التعريفات التي قدمها مالك بن نبي و على الرغم من أني اعتمدت على اختصارها, لأنها حسب مالك بن نبي << **لعل الآراء التي عرضناها تعطينا في هذا الصدد توجيهات قيمية, و إن كانت في الحق لا تمنحنا حلولا حقيقية** >> [5].فان وضع سؤال الثقافة في العالم العربي و الإسلامي يختلف و يأخذ معنى مختلف في واقعنا الاجتماعي التي لم يخلق بعده.

و كما قلنا في السابق أن الثقافة تختلف من مجتمع إلى آخر فلا نستطيع أن نحدد مفهوم واحد للثقافة, لأن لكل مجتمع و طبيعته الخاصة به.

---

[1] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة,ص29 .

[2] نفسه:ص29.

[3] نفسه:ص30.

[4] نفسه: ص30 .

[5] نفسه :ص38.

فيقول مالك بن نبي: << **تعريف لينتون الذي يرى أن الثقافة على أنها مجموعة من الأفكار سليم و لكنه ناقص من نواح عديدة.** >>[1] و تعريف "**أوجبرن**": << **الذي يرى أن الثقافة جملة من الأشياء و الأفكار سليم أيضا و لكنه ناقص من نواح أخرى**>>[2] أما التعاريف الماركسية التي يرى أن الثقافة هي انطباع و انعكاس للمجتمع,فيقول فيها مالك بن نبي: << **فهي سليمة أيضا دون أن يكون أكثر إقناعا** >>[3]. فان هذه التعاريف لا نستطيع أن نسقطها في الواقع الاجتماعي العربي لأنها لم تستطيع فهم و تفسير لواقع اجتماعي معين,بقدر أن الواقع العربي لم يخلق حتى واقعه و عالم أشيائه فكيف يستطيع أن يبني ثقافة معينه.

و لكن واقعنا اليوم يثبت أن العالم العربي و الإسلامي قد فقد الكثير من المعايير الأخلاقية و الاجتماعية و السياسية لأن عالم ثقافة هذا الإنسان الما بعد موحدي قد أصبح إنسان بلغة "**إدغاموران**" إنسان تائه.

و بهذا الواقع العربي يؤكد مالك بن نبي أن نغير و نعطي مفهوما للثقافة لا من زاويه نظرية فحسب, و هذا ما اهتمت به المدارس العربية بل من وجهة نظر عملية و تربوية حيث يقول مالك بن نبي: << **فلو افترضنا أن تعريف معينا توفر له شرط الصحة, و لكنه في ذاته مقتصر على الجانب النظري, و لم يكن في رأينا كافيا في بلد لا تساعد ظروفه العامة على تكلفة مضمونة بطريقة ضمنية** >>[4] فعندما يتجه العقل الماركسي إلى تفسير معنى الثقافة فانه سوف يعطينا نبرة أيدلوجية ماركسية, و عندما يضع الأمريكي مشكلة الثقافة فانه سوف يضعها وفق المنتجات و الظروف العامة عن الحضارة الغربية.

و بذلك سوف نجد أنفسنا حسب مالك بن نبي: << **منساقين مع طبيعة المشكلة الخاصة بالبلاد العربية و الإسلامية إلى تطبيق منهج آخر, هو المنهج الذي يستخدم في تعريف الشيء المعقد** >>[5] .

ثالثا: الثقافة تعريفاً و مفهوماً

وفق هذا الآراء نجد أن مالك بن نبي قد عالج موضوع و مشكلة الثقافة من جميع الجوانب التي عرفتها الثقافة من ناحية المفهوم و من ناحية التأسيس وفق هذا فما هي الرؤية التي قدمها مالك بن نبي للثقافة؟.

لا يمكن الحديث عن الثقافة في المجال العربي و على مستوى الفكر الإسلامي من دون التطرق و الاقتراب من مالك بن نبي الذي شغله قضية الثقافة, و ظل مسكونا بها و لم يفارقها الاهتمام طيلة حياته وإسهاماته في هذا

---

(1) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة,ص39.

(2) نفسه: ص39.

(3) نفسه : ص39.

(4) فسه : ص40.

(5) نفسه:ص40 .

الشأن هي الأكثر حضورا و أهمية على مستوى الدراسات الفكرية و الإسلامية فمالك بن نبي استطاع أي يبلور نظرية الثقافة, و هي النظرية التي اكتسبت شهرة بين الكتاب و الباحثين الذين ظلوا يرجعون إليها و يعرفون بها في كتابهم و أبحاثهم.

يضاف إلى ذلك أن مالك بن نبي ظل يلفت النظر و الاهتمام لنظريته تلك,و جدد الحديث عنها باستمرار و في مناسبات عديدة, و لم يتوقف عن الكتابة و الحديث عنها و التذكير بها و ذلك منذ أول كتاب له يحدث فيه عن الثقافة و هو كتاب (**شروط النهضة**) الصادر باللغة الفرنسية في باريس عام 1949 إلى كتاب الذي خصصه لهذه القضية, و هو كتاب (**مشكلة الثقافة**) الصادر باللغة العربية في القاهرة عام 1954 و هكذا في الحديث خلال المحاضرات التي ألقاها في القاهرة و دمشق و طرابلس .

و الذي جعل ابن نبي يهتم بفكرة الثقافة هو أنه بعد جولته إلى القاهرة عام 1956,و ترجمة كتابه (**شروط النهضة**) و فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ, و صدروها باللغة العربية أنذلك ,وجد ابن نبي اهتمام من الطلاب العرب في القاهرة حول أفكار الثقافة.

و في هذا الشأن يذكر عمر مسقاوي في تصديره لكتاب مشكلة الثقافة إن الطلاب العرب في القاهرة, كانوا يرتادون مجلس ابن نبي عام 1959 .

هذا الاهتمام شجع ابن نبي يخصص مفهوما حول الثقافة و يجمع و يشرح في ما توصل إليه من أفكار و تصورات, و في هذا الصدد جاء كتابه (مشكلة الثقافة) و بعد إثني عشر عاما على صدور الطبعة الأولى من الكاتب,و اعتبر ابن نبي في مقدمته الطبعة الثانية إن الأفكار التي عرضها حول الثقافة كانت غريبة في الوسط الثقافي العربي,وأنه قد تناول قضية الثقافة من زاوية جديدة و غرابة أفكاره في رأيه ترجع إلى أمرين هما: [1]

- **أولا**: لأنها لم توضح الدراسات الغربية في الموضوع لأسباب منهجية.

- **ثانيا**:لان الأفكار المعروضة هنا ليست في جوهرتها إلا امتداد و شرحا وتحليلا من ناحية, و تركيبيا من ناحية أخرى للأفكار التي قدمها في كتابه شروط النهضة, الذي نشر منذ ربع قرن باللغة الفرنسية أي عندما كان الموضوع بكرا بالنسبة للعالم الإسلامي فحسب , بل أيضا في بلاد الغرب. [2]

و لعل هذا الانطباع بغرابه هذه الأفكار تولد عند ابن نبي بعد صدور وتداول كتابه (مشكلة الثقافة) و ما شكل حول من وجهات نظر, و لهذه عبر ابن نبي عن هذه الغرابة في الطبعة الثانية من هذا الكتاب.

---

[1] زكي الميلاد, مشكلة الثقافة (تطور و المنهج) موقع الأستاذ مالك بن نبي تاريخ2016/03/03 ,الوقت 21:30.

[2] مالك بن نبي:مشكلة الثقافة:ص11.

كان منطق التفكير عند ابن نبي يتحدث على قاعدة التمايز و الاستقلال الثقافي فهو لا يرى في التعريفات المطروحة للثقافة سواء منها ما عبر عن وجهة النظر الغربية أو الماركسية ما يدعو إلى الاعتراض, و ليس نقصها راجعا فيها.

و هذا ما يؤكده مالك بن نبي ,و إنما يعتبر مضمونها لا يمكن أن يعطيها مفتاح حل المشكلة في الظروف النفسية و الزمنية للمجتمعات العربية و الإسلامية .

و مازالت هذه الأفكار تحفظ تقدر من الغرابة, خصوصا من ناحيتها التركيبية, أما في ناحيتها التحليلية فلم تعد لها تلك من الغرابة اللافتة.

و منشأ هذه الغرابة في هذا الوقت,لعله يعود الى الغموض الذي يحيط بهذه الأفكار, من جهة صعوبة معرفة كيف توصل ابن نبي لبناء نظريته في الثقافة بالتركيب الذي شرحه في كتاب شروط النهضة ثم في كتابه (مشكلة الثقافة).

التحليل النفسي للثقافة :

لقد عالج ابن نبي مشكلة الثقافة من ناحيتين أطلق على الناحية الأولى نسميه التحليل النفسي للثقافة و على الناحية تسمى التركيب النفسي للثقافة.

في الناحية الأولى, حاول ابن نبي أن يتبع بصوره سريعة و عامة بعض الملامح التاريخية التي ساهمت في تكوين مفهوم الثقافة, و من أين جاءت كلمة الثقافة و من متى استخدمت في اللغة العربية ؟ و كيف تبلور هذا المفهوم و تطور و تحدد في الثقافة الأوروبية ؟

و تعتبر فكرة الثقافة هي فكرة حديثة جاءتنا من أوروبا و الكلمة التي أطلقت عليها هي صورة حقيقية للعبقرية الأوروبية .

و إن التحليل التاريخي(الذي قدمه مالك بن نبي كان مهما و لافتا بعض الشيء في وقته, و بالذات على مستوى الكتابات و الأدبيات العربية و الإسلامية التي لم تكن لامعة, ولم تشهد تجديدا و تراكما مبكرا و مهما في هذا الشأن, أما اليوم فان صورة ذلك التحليل التاريخي قد تغيرت من حيث أهميته و قيمته[1].

و إن التحليل التاريخي الذي قدمه مالك بن نبي لإشكالية الثقافة هي عبارة عن مجرد فصل تمهيدي و مدخل كيفية جوهرية هي أن لكل مجتمع و خصائصه الثقافية التي تميز عن غيره كون هذا المفهوم حسب بن نبي يمنع جميع استيراد الحلول من مجتمع إلى آخر, لأن كل مجتمع و له مرحلته التاريخية المختلفة.

و إن هذه الملاحظة التي وضعها بن نبي ليست قائمة على اعتبارات دينية أو سياسية حيث يقول شاهد القرن<< **و ليس مبنى هذه الملاحظة قائما على اعتبارات دينية أو سياسية, بل هي قائمة على اعتبارات فنية خالصة** >>[2].

و لهذا يقرر بن نبي أن من المخاطرة اقتباس حل أمريكي أوحل ماركس, كما نطبقه على أي مشكلة تواجهنا في العالم العربي و الإسلامي, لأننا هنا أمام مجتمعات تختلف اتجاهاتها و أهدافها. [3]

فابن نبي يرفض أي استراد لأي حل أجنبي, لأنه بطبيعة الحال تختلف من مجتمع إلى آخر فلاحظ هنا أن لكل مجتمع و خصائصه المميزة عن غيره لهذا يعتبر ابن نبي انه كان من بين المفكرين الذين لازموا هذه الفكرة و هي الرفض المطلق لأفكار التي لا تناسب ظروفنا و خصائصنا .

و هذه الفكرة هي أكثر رسوخا حيث ظل يعمل في جميع مؤلفاته و محاضراته يحاول فهم و دراسة و منهجية التعامل مع الفكر الغربي.

هذا الفكر الذي حاول السيطرة على جميع العقول العربية و من حيث التباهي بهذا الفكر و هذا ما نجده مثلا عند "**سلامة موسى**" و "**لطفي السيد**", و "**طه حسين**" ، و "**ساطع الحصري**" ، و "**عبد الرحمن بدوي**" و هؤلاء اعتنقوا مذاهب فلسفة غربية و نسبوا أنفسهم إليها و عرفوا بها .

و التحليل النفسي للثقافة كان يقصد التعميق التمايز و الاختلاف الثقافي و قدم "**عمر مسقاوي**" كيف تداول بعض الأفكار حول الثقافة عند بعض الطلبة الذين تلقوها في المحاضرات الجامعية نقلا عن اثنين من المفكرين الأمريكين هما "**وليام اوجبرن**" ورالف "**لينتون**" ، كان من دوافع اهتمام ابن نبي بتخصيص كتاب حول الثقافة

---

[1] زكي الميلاد, مشكلة الثقافة (تطور و المنهج) ,ص04.

[2] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة :ص139.

[3] نفسه:ص37.

إلى جانب ما وقع في يد ابن نبي من كتاب كان رائجا في ذلك الحين و هو كتاب دور الأفكار التقدمية حول تطوير المجتمع ، و يقول مسقاوي في ذلك << **إن إبن نبي حوّل الثقافة برؤية جديدة لم تألفها المصطلحات المستوردة التي تمت صياغتها في إطار الفكر الليبرالي أو في إطار الفكر الاشتراكي التقدمي** >>[1] .

يرى ابن نبي أن الجمال له تأثير في الروح الاجتماعية و شرح هذه الفكرة بقوله أن الأفكار هي المنوال الذي تستنتج عليه الأعمال وهي التي تتولد من الصور المحسة من الإطار الاجتماعي فتنعكس في نفس من يعيش فيه و هنا تصبح صورا معنوية يصدر عنها التفكير .

و لقد اعتنى ابن نبي كثيرا لمناقشة أفكار و تصورات حول الثقافة و تعريفاتها و حدد مجالات التوافق و الاختلاف فهناك على أساس فني و تقني ، و ثقافي و تاريخي من جهة ، فني وتقني يرتبط بمستويات التطور و التقدم المدني و الحضاري العام ، و ثقافي و تاريخي يرتبط بتمايز المكونات الثقافية و التاريخية .

و لقد فهم شاهد القرن الثقافة وفق نظرة اختلفت عن التعريفات الكلاسيكية المعروفة <<**فهو يعتبر أن الثقافة هي الكم المتراكم من الصفات و القيم و الخصائص المكتسبة طيلة مرحلة زمنية لقياس حياة الفرد الموجود داخل محيط أو نسيج إجتماعي**>>[2] فهي مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه<< **فالثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه و شخصيته و هو المحيط الذي يعكس فيه حضارة معينة الذي يتحرك في نظافة الإنسان و معطيات المجتمع**>>[3] .

إن الثقافة بهذا المفهوم هي الرصيد الأولي الدافع إلى المبادرة و الحاجة إلى التعبير و مواكبة العصر في الرؤية المستقبلية و محاولة إثبات الشخصية كما ذهب[4] إلى ذالك الدكتور "**أسعد السحمراني**" في تعرضه لمفهوم الثقافة فقال:<< **أنها المهد المنشئ لشخصية الإنسان تفرض عليه قيمتها و قواعدها اذ الغزو الثقافي لشخصية الأوربي ازدادت حركة الاغتراب و قوي النفوذ الاستعمار الذي استقر في عمق قناعات بعض الناس يتأثر من الفكر الأوربي**>>[5] .

---

(1) مالك بن نبي : مشكلة الثقافة ، ص8.

(2) نفسه: ص8.

(3) محمد شاويش: مالك بن نبي و شروط النهضة،التبين، عدد 19, الجاحضية,ص83.

(4) عمر بن سليمان: فلسفة ثقافة، ص 268.

(5) أسعد السحمراني : مالك بن نبي مفكراً إصلاحيا, ص 206.

و عليه لابد أن ندرك أن للثقافة أهمية كبرى في تكوين الفرد و بناء شخصية: << **فهي الرّحم الذي تنمو فيه أفكاره و تطلعاته الذي تتحدد فيه قيمه و أهدافه و هي التي تحقق التوازن في عالم الإنسان الداخلي و هي تعلمه كيف ينخرط في الجماعة ليؤدي دوره من خلالها بشكل متكامل دون أفضليات ، فالثقافة تنمي الجانب المعنوي في الإنسان و المجتمع بمستوى متوازن كما ينمو الكائن الحي بكل أعضائه في وقت واحد** >>(1) .

و بذالك فالسلوكيات التي تعمل على تجسيدها في مجتمع فكلها تدعو إلى اليقظة و التحرر و الوقوف للموانع التي تحول دون الوصول إلى التغير أو التحديث فالثقافة كما يريدها مالك بن نبي هي تلك التي تبني و توجه و تثابر و لا تعرف الخمول فهي: << **عبارة عن مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته و تصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه**>>(2).

و عليه فالثقافة هي نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة فالشرط الأول لتحقيق مشروع ثقافي هو الصلة بين الأشخاص أي أن أساس بناء ذلك هو دائما في نظر شاهد القرن التركيب و التأليف بين الاشخاص و المقصود هو عالم الأشخاص أي المجتمع الذي يريد إن يؤدي وظيفة في وسط المحيط الذي يعيش فيه، فالثقافة التي يقصد إليها هي تلك التي لا تدرس في المدارس و تشكل على مقاعدها إذ هو إلا عامل مساعد من عوامل الثقافة (3)

إذ لابد أن ندرك: "**أن الثقافة لا تضم في مفهومها الأفكار فحسب و إنما تضم أشياء أعم من ذلك كثيرا تخص كما ترى أسلوب الحياة في مجتمع معين من ناحية و السلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع من ناحية أخرى** "(4).

لأن تنظيم المجتمع و حياته و حركته و سلوكياته، تراجعه، فوضاه، ركوده ، جداله ، كلها ذات علاقة بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع فإذا ما تغير هذا النظام فان جميع الخصائص الاجتماعية تتعدل في نفس الاتجاه، إن الأفكار, لأهميتها حسب شاهد القرن هي في مجموعها فرعا من أدوات التطور في مجتمع معين(5).

(1) مالك بن نبي: أفاق جزائرية ترجمة شريف مكتبة النهضة الجزائرية بدون تاريخ ص137.
(2) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص74.
(3) عمر بن سليمان: فلسفة الثقافة ص269.
(4) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص13.
(5) عمر بن سليمان: فلسفة الثقافة ص269.

و بطبيعة الحال فان الأفكار هي الضامن الوحيد التي تعبير عن مدى وعي أي مجتمع لان هذا الأخير هي التي تشكل عالم ثقافته و أخلاقه و سلوكياته و لكل مجتمع طابعه الفكري الذي يميزه عن غيره. و إليك مثال على ذلك: فالمجتمع الأول الذي ميزه بن نبي على غيره نظرا لتجلي الروح فيه فان جميع علاقاته الدينية و الاقتصادية و الثقافية هي رمز لهذه الروح السامية التي تجلت في نفوس ذلك العصر على عكس ذلك فإننا نجد أن النفوس في العصر الأخير تحكمت فيها الغريزة و الشهوة و بذالك تعفنت فيها جميع الصفات الأخلاقية و كثرت فيها الأفكار القاتلة .

و على هذا نجد أن أهمية الأفكار في حياة مجتمع معين تتجلى في صورتين: أما أن تؤثر كعوامل نهوض بالحياة الاجتماعية و إما أن تؤثر على عكس ذلك كعوامل تراجع بحيث يجعل النمو الاجتماعي صعبا مستحيلا.[1]

فالثقافة كمكتسبات بإمكانها إن تخص الفرد و تعمل على تقوية مناعته ضد المثبطات من جهة, و ضد الاكتساح أو الاستعمار الناشئ عن الذوبان في فلسفة حضارية أخرى تنتهي بالسيطرة و الاستلاب المؤدي إلى تغيب مهمة الفرد الأساسية في المجتمع المسلوب و ما يتبع ذلك من تردد و اضمحلال للهوية أو الخاصة التي كان للبعد الثقافي دور في الحفاظ عليها [2].

و يعتبر ابن نبي أن الثقافة هي التي توجه الطاقات الفردية لتحقيق بناء الفرد في الداخل بالنسبة إلى مصلحته و لتحقيق مكانه في المجتمع بانسجام تلك المصلحة مع مصلحة المجتمع[3] .

و عليه فإن مشكلة الثقافة هي ليست متطابقة مع العالمين العربي و الغربي فهي ليست مشكلة منحصرة في محاولة فهم الثقافة و إنما في تحقيقها بصورة عملية و مسايرة للواقع الاجتماعي أي بتوظيفها كوسيلة عصرية تمكننا من خطو خطوة إلى الإمام في طريق تحققها عمليا على أن تكون الخطوة الجديدة تركيبا لعناصر الثقافة التي نرقى و نتطور و من دونها نتراجع فإذا ما وصل مجتمع معين لتطوره الطبيعي فانه يؤدي عملية تركيب ثقافة بصورة تلقائية تنحصر في المقاومات الثقافية في وحدة متجانسة تمثل ثقافة و ليس هذا منهجا تقوم على أساس تنظيم الثقافة و إنما هي ظاهرة طبيعية.[4]

و نفهم أن كل ظاهرة اجتماعية هي لا تستقر في صورة نشأتها، فهو كائن تفاعلي جدلي، و الثقافة هي الجسر و هي التي تنمو مع كل هذه الظواهر الاجتماعية.

---

[1] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص 14.

[2] ضيف الله بشير: فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي منشورات المجلس الأعلى بدون ط سنة 2005 ، ص 80.

[3] ضيف الله البشير: فلسفة الحضارة في فكر الثقافة ص 89.

[4] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص 62.

و إن هذه النكسات التي تقع للظواهر الاجتماعية لا يمكن أن تعالج إلا بثورة ثقافية عارمة و جادة تكون هي في الحقيقة عناية انطلاقة جديدة لهذه الحياة الاجتماعية .

و الظرف في هذه الحالة يخلق أمام مجتمع متقهقر مثل مجتمعاتنا العربية الإسلامية استحالة لا يستطيع التغلب عليها فيستسلم و إن الواقع المرير يؤكد على ذلك حيث نجد إن هذه المجتمعات قد ركبت لبعض نقاط القوة التي عرفتها فاستسلمت لأمر الواقع و بقيت تعاني مرارة الواقع المريض هذا الواقع التي تعيشه هذه المجتمعات التي استسلمت لأبسط الأمور نظرا لان الواقع الثقافي لديها لم يستطع أن يقاوم. لأن ثقافة هذه المجتمعات هي ثقافة هشة مرنة غير صالحة .

و لكن يخلق ظرف نفسه بالنسبة إلى مجتمع أخر فرصه لدفعة جديدة و هذا ما نجده مثلا في المجتمع المبني التي سميت بالثورة الثقافية على كل ما هو سلبي لمواجهة أي واقع تواجهه من أجل تعديله في الاتجاه الذي يريده و يراه صالحا له[1].

و بين هذين المثالين بين الاستسلام لواقع و بين الثورة التعسفية لأي واقع لا يستساغ، درجات من الخنوع و التقوقع و الهروب من المسؤولية هي بالضبط درجات الأزمة الثقافية التي يتخبط فيها المجتمع، التي يحاول بكل جهدها إخفاقها السلطات السياسية المورطة أو الانتهازية لأنها تعودت على ألا تسمي الأشياء بمسمياتها. [2]

و إن هذه الانتهازية و هذه التورطات و هذه الشطارة في إخفاء الواقع باسم الواقعية كلها من معدن واحد معدن الأزمة الثقافية المعدن الذي تصاغ منه كل الفاجعات و كل النكسات و كل المحاولات الفاشلة سواء في الميدان الصناعي أم الزراعي أم الأخلاقي أم السياسي أم العسكري [3]. الأمر الذي يؤدي حتما إلى التراجع، إذْ كيف عن مواكبة العصر و التحدث عن النهضة خاصة إذاً أدركنا أن الواقع الذي يعيشه الفرد هو واقع أزمات من الصعب حلها .

و هذا هو بالنسبة إلى المجتمعات العربية فان كل أزمة أو تخنق أو فشل في جميع ميادين الحياة فهو مرّده إلى الجانب الثقافي الذي يعطي للمجتمعات مكانتها و عزتها يقول مالك بن نبي: <<**فأي إخفاق يسجله مجتمع في إحدى محاولاته إنما هو التعبير الصادق على درجة أزمته الثقافية**>>[4] و في طبيعة الحال مرحلة تاريخية

---

[1] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة, ص91.

[2] نفسه:ص92.

[3] نفسه:ص92

[4] نفسه، ص 92.

يسجلها التاريخ الإنساني على جميع الحضارات التي تعاني من هذه النكسات ، فالتاريخ يسجل النائم و المستيقظ في ركب السجل الحضاري .

و في الأخير يعتبر مالك بن نبي أن الثقافة هي المحيط العام الذي يشكل شخصية الفرد الإنساني من جميع الجوانب, و لكي نفهم التعريف الذي قدمه مالك بن نبي للثقافة و نمتلك القدرة على تكوين مفهوم واضح و جلي للثقافة البنيوية فهو باختصار يتكون من العناصر التالية :

– **أولا** : هو مجموعة من الصفات الخلقية، فنجد أن مالك بن نبي يركز على العنصر الأخلاقي و يعتبره هو الركيزة بحيث يعتبر الفلسفة الأخلاقية هي منهج تربوي لأي ثقافة. بحيث جعل القيم الأخلاقية تفوق العقل بحيث رأى أن المبدأ الأخلاقي هو الصلة الوثيقة و المتينة بين جميع أفراد المجتمع و هذا ما يشير إلى مدى ضرورة الصلة الأخلاقية بين جميع أفراد المجتمع من أجل قيام أي حضارة .

– **ثانيا** : القيم الاجتماعية بحيث يعتقد أن شاهد القرن أن عالم الأشخاص لا يكون مجتمع ذا نشاط فعال إلا إذا تماسك أفراده وترابط، و لا يمكن للفرد المنعزل أن يكون حضارة و ثقافة فإن عالم الأفكار و الأشياء لا يمكن أن يتأسس إلا إذا تآلف عالم أشخاصه و ترابطوا فيما بينهم.

– **ثالثا** : التأثيرات التي يتعرض لها الفرد منذ ولادته، يرى شاهد القرن إن الفرد منذ ولادته يكون غارق في عالم الأفكار و الأشياء التي يعيش معها في حوار دائم، فالمحيط الداخلي الذي ينام الإنسان في ثناياه و يصحو و الصورة التي تجري عليها حياتنا اليومية تكون إطارنا الثقافي الذي يخاطب كل تفصيل فيه روحنا بلغة منعزلة لكن سرعان ما تصبح بعض عباراتنا مفهومة لنا عندما نقوم نحن بتفسيرها في عالم الأفكار و الأشياء.

– **رابعا** : الثقافة هي تلك العلاقة التي تربط سلوك الفرد و أسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه هذا الكائن بحيث يملك هذا الكائن مجموعة من المقاييس التي تشكل طباعه الجماعي و هذه الأحكام هي التي تحدد طابع المشكلات و تسمح بالفعالية الإجمالية للفرد و هي التي تحدد المباني الاجتماعية للشخصية الاجتماعية أو ما أطلقنا عليه بأسلوب الحياة .

هذا التعريف للثقافة يجعلنا نؤكد أن الثقافة حسب المنظور البنيوي هي حوض الألوان و الأنعام و العادات و التقاليد و الأوزان و الحركات و هي التي تطبع على حياة الإنسان اتجاها و أسلوبا يقوى الإنسان عبقرية، يغذي طاقته الخلاقة، هي الرباط العضوي بين الإنسان و الإطار الذي يحيط به[1] .

[1] زكي الميلاد, مشكلة الثقافة (تطور و المنهج) ,ص11.

ولكن المتأمل إلى هذا المفهوم الشامل يجد انه إذا كانت الثقافة هي مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية فان السؤال الذي نطرحه ما هي هذه الصفات الخلقية ؟ معنى هذا انه هل يمكن و نحن نعيش في هذا الزمن إن تكون صفات خلقية تتصل مع الثقافة أو بالأحرى ما هي هذه الصفات التي تكون أكثر قربا و اتصالا بالثقافة ؟ وما هي أيضا تلك القيم الاجتماعية؟

لأن الأخلاق هي حقل واسع و هي أيضا تمتلك خاصية العلم و الاستقلالية مع مختلف العلوم، بحيث نجد إن الأخلاق تتقاطع مع الثقافة و هذا التقاطع يحتاج منا إلى ضبط و تحديد و المشكلة الأكبر من يحدد هذا التقاطع إذا حصل هذا التقاطع هل هم رجال الدين أم رجال القانون أم هم الفلاسفة. و إذاً وضعنا هذا الأمر بين ظهرانيا فإننا نقول إن عالم الأفكار للإنسان المسلم اليوم يعيش هذا التقاطع فالثقافة هي منعدمة كون إن القيم الأخلاقية ضعيفة غير و ليس لها محدداتها خاصة نحن في زمن لا يعترف إلا بالإنسان المثقف و ليس المثقف و فقط بل المثقف الواعي، تثقيفا تجاه و قضايا أمته وفق منظور شامل و عميق عمق الفكرة، و هذا ما تعانيه الأمة اليوم كون أن هذه القيم الأخلاقية هي غير منظمة و غير متناسقة وما يبرر ذلك ما يعيشه العالم الإسلامي من فوضى،و جمود،و فقدان للمسؤولية لانتشار القيم العلمية و الصناعية.

و عندما نؤكد على القيم الاجتماعية فكذلك الحال هو ان هذه القيم تتصل بعلم الاجتماع و بفلسفة القيم و هما من الحقول المعرفية و المستقلة .

و إن تأثيرات هذه القيم على الفرد منذ ولادته تتشابك معه عناصر أخرى قد يتصل و يتقاطع مع الثقافة فنصبح نحن بحاجة إلى جهاز و مخابر تحاول تدقيق هذا المفهوم و هذا الضبط، و في ظلّ عيشنا في جوّ فوضوي من الأفكار مما جعل النمط الاجتماعي هو الذي يفرض نمطا سلوكيا معينا .

إذاً إن التعريف الذي قدمه بن نبي يحتاج إلى ضبط دقيقا و تحديدا صارما كون هذا التعريف يتميز بعمومية شديدة، وان هذا الضبط لمهمة صعبة في موضوع الثقافة و خاصة و نحن في هذا الزمن الذي نقصت فيه صيحة التفلسف و طغت فيه قوة و صوت العلم .

و بقى تعريف بن نبي من التعاريف المقدمة للثقافة تميز فيه بعمومية عامة و شاملة و لكن كان في تحليله للثقافة أكثر تمييزا بحيث حلل و دقق في تحليله و اسقط منهجه الفكري الخاص للثقافة هذا المنهج الذي جعله يقدم ويحلل نظرية في الثقافة جعلته يكون مميزا فيه .

و كما انه هذه الملاحظات التي وضعناها للتعريف الذي قدمه بن نبي للثقافة لا نسلب منه صفة التعريف بالتأكيد و إنما لا نرى فيه خاصية التعريف المحكم .

و من خلال هذا المفهوم الشامل الذي قدمه شاهد القرن للثقافة يستلزم علينا إذا تعرفنا على الثقافة تعريفا و مفهوما فان للثقافة مثقفا و هناك علاقة جدلية بين هاذين المعطيين للثقافة و المثقف ولا يمكن طرح سؤال الثقافة بعيداً عن المثقف ، فما هو المثقف لدى مالك بن نبي ؟ .

رابعا: المثقف دوره و رسالته

يثير مفهوم المثقف العديد من الإشكالات المرتبطة بتحديده معرفيا و منهجيا فتتكاثر المفاهيم و الشبكة العلائقية التي ينتمي إليها مما يوقع الباحث في اللبس المنهجي عند تناول مفهومي الثقافة و المثقف .[1]

و تطلعنا المعاجم إنّ المثقف في اللغة :

نستمده من لسان لابن منظور الذي يربطه بكلمة ثقف أي بمعنى ذو فطنة و ذكاء و المراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه " أي هو الشخص الكيس الفطن الحاذق .[2]

و معنى المثقف باللغة الفرنسية موسوعة لالاند الذي يرى انه هو ميزة شخص متعلم، و كان قد طور بها هذا المتعلم ذوقه، وحسه النقدي و حكمه. ثانيا : تربية يترتب عليها تولد هذه الميزة [3]

و إن مفهوم المثقف تم تداوله لأول مرة في القرن التاسع عشر حيث يعود تاريخ المثقف و هو المصطلح الذي يدل على فئة من الناس، تعتمد منزلتها الاجتماعية على دعوتها بالخبرة الاجتماعية و لكنهم ليسوا مجرد كتاب أو فلاسفة أو فنانين إلى بواكير القرن التاسع عشر .[4]

و تطور استخدام هذا المصطلح في العلوم الاجتماعية ليشير إلى فئة اجتماعية تمتلك جملة من المعارف المتخصصة تمكنها من إدارة شؤون العامة في المجتمعات المعاصرة، و من هذا المنطلق قسم المثقفون إلى قسمين هما:

التقليديون هما : المعلمون و رجال الدين ، الإداريين .

العضويون :وهم من تربطهم مؤسسات و مصالح مباشرة من أجل تنظيم المصالح و اكتساب المزيد من السيطرة .

---

(1) عبد الحليم مهور باشا: فلسفة الثقافة, الجزائر، 2015، ص202.

(2) ابن منظور:لسان العرب، دار الكتب العلمية ط1، 2015 ، ص453.

(3) لالاند أندري: موسوعة لالاند الفلسفية ، ج 1 ، تر أحمد خليل ، منشورات عويدات بيروت لبنان ، ط 2 ،2001، ص 241.

(4) طونيب بينتيت:مفاتيح اصطلاحيه جديدة ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت،ط 1، 2010 ، ص 586.

أ- المثقف في الفكر الغربي :

تم تجاوز هذا المفهوم في الفكر الفلسفي الغربي إلى مفهوم المثقف الملتزم بقضايا مجتمعه و لا تتوقف وظيفته عند حد إنتاج الأفكار و المعارف و المشاريع فالمثقف في الغرب اعتبر بمثابة الضمير الحي الذي يتكلم نيابة عن المجتمع [1].

و كما يقول "**إدوار سعيد**": << **ذلك التعريف الشهير مع جوليان بندا للمثقفين بأنهم عصبة صغيرة من الملوك -الفلاسفة الذين يتحلون بالموهبة الاستثنائية و بالحس الأخلاقي الفذ و يكونون ضمير البشرية** >>[2] وانخراط المثقفون في النضال من أجل قضايا يرونها عادلة من وجهة نظرهم، و حضر جون بول سارتر كنموذج تمثيلي لهم، حيث اكتسب المثقفون مكانة مرموقة في المجتمعات الحديثة، بسبب التحولات السياسية و الاجتماعية التي عرفتها هذه الأخيرة، و انخراطهم الفاعل في مجالات عدة معتمدين على النقد كآلية معرفية يصححون من خلالها الأخطاء التي يرتكبها السياسيون << **خرجنا مع سارتر و خاصة بعد انتفاضة ماي 1968 في فرنسا من مفهوم الطبقية و الثورة الاشتراكية إلى مفهوم الإنسان و التحرر الاجتماعي** >> [3].

في مطلع التسعينيات مع انهيار الاتحاد السوفياتي وميلاد نظام دولي عاد الزحم لمفهوم المثقف و عاد التساؤل هذه المرة ليس عن وظيفة بل عن مشاريعه الفكرية و المعرفية، بعد أن ظل المثقف لعقود يمارس النقد على غيره أصبحت السهام توجه له، و خاصة فكرته عن الالتزام السياسي و الأخلاقي، فيرى "**ميشال فوكو**" انه حان الوقت للتحدث عن المثقف الخصوصي أي لديه معارف متخصصة و أطلق عليه اسم الخبير يدل الحديث عن المثقف الكوني كما يتخيله سارتر[4] فلم يعد منذ مدة مطالبا بلعب الدور فقد تبلور دور جديد للعلاقة بين النظرية و الممارسة، حيث يعود المثقفون إلى الاشتغال لا على ما هو كوني و نموذجي و حقيقي بالنسبة للمجتمع بل داخل قطاعات محددة و نقط معينة. [5].

ب- المثقف في الفكر العربي:

---

(1) عبد الحليم مهور باشا: فلسفة الثقافة, ص203.

(2) إدوارد سعيد: صورة المثقف ترجمة غسان غصى,منى دار المنار,بيروت,1946,ص220.

(3) عبد الاله بلقيز: نهاية الداعية الممكن و الممتنع في ادوار المثقفين، بشبكة العربية، بيروت، ط1 2010، ص13.

(4) عبد الحليم مهور باش:فلسفة الثقافة، ص204.

(5) ميشال فوكو: وظيفة السياسة للمثقف عز الدين خطابي، مجلة رؤى فلسطين عدد 2010,ص26.

أما في العالم العربي فان المثقف كان يتميز بتغليب النزعة النضالية كعنصر أساسي ارتبط هذا المثقف بالمهمة الاستعمارية و كل أشكال الطغيان الاستعماري فكانت هذه الصفة ملازمة له.

و سوف نتعرف على مفهوم المثقف لبعض مفكري العالم الإسلامي، بمعرفة نظراتهم المختلفة للمثقف وفق المسار و الدور و الوضع العام للمجتمعات العربية .

"فمحمد عابد الجابري" يقول: << **إن المثقف إذا هو في جوهره ناقد اجتماعي إنه الشخص الذي همّه أن يحدد و يحلل و يعمل من خلال ذلك على المساهمة في تجاوز العوائق التي تقف أمام بلوغ نظام اجتماعي أفضل نظام أكثر إنسانية و أكثر عقلانية إنه بذلك يصبح ضمر المجتمع** >>[1] .

أما **"برهان غليون"** << **المثقف هو من ينتمي إلى طبقة اجتماعية فاعلة في المجتمع حيث تتميز عن غيرها بتفكيرها العالي و الناقد و تدخل في عمله الصراع الاجتماعي و السياسي و في النهاية يكون تأثيرها واضحا أو من خلال مشاركات قوية لصنع السياسة و القرار السياسي أو من خلال أعمال فكرية تؤثر في الناس و المجتمع فكريا و ثقافيا و معنويا** >>[2] .

إن المتأمل في هذين المفهومين للمثقف العربي بحيث يرون المثقف إنسانا ذا معارف عملية و فلسفية و اجتماعية فهو ذلك المثقف الذي يتكلم عن المجتمع يحس بالمجتمع من وجعه و آلامه هو يستخدم النقد كآلية يناضل من أجل قيم المجتمع.

أما شاهد القرن فانه يعرف المثقف فهو يعتبره إنه هو المثقف المسلم، الذي يحمل رسالة عالمية إنها تلك التي تجعله تحدى الراهن الذي عرف هيمنة المادي على الوحي و من الضروري أن يسعى إلى إنصاف هذا الأخير .

إنه الذي يفكر في الإنسان العالمي و إسهامته في مواجهة المشكلات في أبعادها الكونية و الوجودية.

و لقد تكلم ابن نبي عن دور الإسلام تحديدا في مواجهة هذه القضايا و هو رسالة وجب أن لا يفصله عن المثقف العالمي لأنه يقول: << **إذا أراد المسلم أن يسد هذا الفراغ في النفوس المتعطشه, النفوس المسيطرة للمبررات الجديدة فيجب أولاً أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة, بذلك على قداسته الوجود, إلى ربانية الوجود و لا قداسة الوجود إلا بقداسة الله** >>[3] .

---

(1) محمد عابد الجابري: المثقفون العرب محنه ابن حنبل و نكبة ابن رشد، بيروت, مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 2010، ص25.

(2) برهان غليون: تهميش المثقفين و مسألة النخبة القيادية, بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص86.

(3) ابن نبي: مالك: دور المسلم و رسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين, دار الفكر, ط1, 1978,ص17.

فهو إذاً ذلك الفرد الواعي المدرك لرسالته و دوره في التغيير الايجابي عاملا لما كلفه الواجب الديني تغيرا و عملا و حضارة.

بحيث يسعى شاهد القرن وفق هذا المثقف العالمي أن يفكر في الإنسان العالمي من أجل مواجهة جميع المشكلات الإنسانية فالمثقف وفق مالك بن نبي هو ذلك الإنسان الذي يعيش هموم أمته و شعبه هو ذلك المثقف الذي يسعى جاهدا بأفكاره و سلوكاته أن يجد حلولا، أن يحاول دائما أن يعيش لغيره لا لنفسه, فهو يسعى إلى بناء مجتمع متحضر يسعى فيه إلى بناء إنسان جديد عكس ما يعيشه الإنسان الما بعد الموحدي الذي تغلغلت فيه الهزيمة و غلبت فيه روح الاستكانة، وبحيث يحاول و يسعى أن يغلّب سلوكه على معرفته, فالمعرفة وحدها لا تكفي عند مالك بن نبي, حتى ولو أننا و قفنا أمام هذا الموقف أن السلوك أكثر من المعرفة, فحتى المعرفة هي تلعب دورا في بناء الإنسان خاصة و عن هذا العالم نعيش وفق العالم الذي يعترف إلا بالمعرفة، و ليست المعرفة، و كفى بل المعرفة المتخصصة، فنحن نحتاج من المثقف اليوم سلوك و معرفة لكي نعيش حياة الأسياد لا حياة الأذلة .

غير أن الصورة المثالية للمثقف التي وضعها كافة المفكرين العرب تبقى صورة مثالية بعيدة عن الواقع ومع التطورات الحاصلة في ظل السياسات الجديدة دفع الكثير من العلماء، إلى فتح النار على المثقفين العرب خاصة منهم "**علي حرب**" الذي أكد هذا الأخير أن المثقف يعيش أزمة عميقة بقوله:<< **المقصود بالأزمة فقدان المصداقية الفكرية و الفاعلية النضالية بعد تصدع النظريات الشاملة في قراءة العالم, و بعد انهيار المشاريع الايديولوجية و السياسية في ضوء التحولات المتسارعة على أرض الواقع** >>[1].

هكذا إذاً تصور بن نبي للمثقف بأنه ذلك المثقف الذي اسميه بالمثقف الرسولي, و المثقف الحارس للقيم و المثقف المتكلم باسم المجتمع، و هو الضمير الحي النابض في قلوب أفراد المجتمع هذا هو دور المثقف: أن يعيش بل يعاني بل يكابد ويلات الألم: مهما كان هذا الألم سوآء ,ألم فكريا, سلوكيا, أخلاقيا, اقتصاديا، سياسيا بل آلام ثقافية. فهل ندرك الأمر؟.

أن تكون مثقفا ثوريا على جميع المشاكل المجتمع بل تكرّس حياتك لهذا الهدف كما فعل من قبل "**سقراط**":<<**فلو كان سقراط مثقفا و كفى، لنعِم بفكرته و عاش، و لكنه أبى إلا أن يكون"مثقفا ثوريا "يحاول تغيير و تبديل الحياة فمات ضحية دعوته، لكن مات سعيدا برسالته** >>[2].

---

[1] علي حرب: أوهام النخبة و نقد المثقف, المركز الثقافي العربي, بيروت, ط3, 2004, ص10 .

[2] زكي نجيب محمود: عربي بين ثقافتن, دار الشروق, ط1, 1999,ص316.

فعلينا أن نكون مثقفين سقراطيين، نضحي من أجل أفكارنا ومن أجل أن تبقى الحقيقة خالدة خلود البشر على هذه الأرض الطاهرة، فشعار الواقع اليوم هو المثقف المضحى، لكي نسعى أن نركب طريق الحضارة. بالرغم من أننا نعيش مرارة الواقع بين مثقف يعيش في الأبراج العالية, لا ينظر إلاّ إلى الأعلى, و مثقف يغلب آرائه

الايدلوجية ومثقف لربما فني عمره في فكرة واحدة طيلة حياته, و مثقف يركب الأمواج العالية, ينقد العولمة و يستعمل أدواتها, مثقفا منعزلا انعزل حتى عن آدائه عمله فما بالك بمجتمعه . و هكذا نشكك حتى في حكمنا عليهم **هل هم مثقفي حقا؟** بل لكي لا نبقى في حيز الإشكالات لأننا لا نملك إيجابات, بل نحن نريد في الوقت الحالي ثقافة عملية، نقدية متحركة. و مثقفا واعيا سلوكيا معرفيا لكي يكون مجتمعا فكريا لا مجتمع متشتت فكريا لأن ثقافته و مثقفيه متشتين, و ما يدّل على ما أقول ما يشهده العالم العربي من حراك شعبي نجد فيه أن المثقف غير موجود تماما، فأي فكر و أي فلسفة هذه, ثورة من دون مثقف . هذا هو حالنا فنحن اليوم نعيش جراء مثقف واعي و لكنه استسلم لأمر الواقع.

نعيش مع المثقف انعزل في الأوساط الجامعية و الاكاديمية لم يسقط منهجه في المجتمعات الشعبية, ومع مثقف سلطوي و مثقف معارض للسلطة و بقينا هكذا و الواقع يزيد تراجعا **فهل من مخرج؟**.

ويمكن أن نقول أن عالم الثقافة قد تشكل وفق عناصر كانت هي اللحمة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الإنساني من أجل بناء الحضارة، و نستخلص و نستنتج مما قلناه سابقاً:

إن المشروع الحضاري و بنائه في فكر شاهد القرن قد ارتكز على معادلة رياضية كان الإنسان أساس هذه المعادلة وفق مالك بن نبي في نظره لنصنع الحضارة في وقت و زمن معين, و لكن لا يسعنا إلى أن نقول نعم نحن بحاجة إلى هذا الإنسان و خاصة نحن في هذا الظرف العصيب, و لكن أي إنسان يا مالك بن نبي فهذه المعادلة هي شاملة شمولية الإنسان في خضم التاريخ، و لكن ركب مالك بن نبي مفعّلا قويا للخروج من هذا المأزق الحضاري بأنّ جعل الدين طاقة ينشر بذوره في هذه المعادلة وفق قوة روحية للإنسان لبناء شبكة العلاقات الاجتماعية التي انفصلت بسبب غياب الفكرة الدينية في المجتمع, مع هذا دعم مالك بن نبي مشروعة الحضاري بفكرة التوجيه التي تصنع التفكير و تبني الإنسان و فق مقومات أساسية لبناء مؤسسات و مشاريع اقتصادية وسياسية و ثقافية، قائمة على دعامة لكي لا يذهب العمل هكذا فهي قوة في الأساس وسد منيع لكافة معوقات النهضة التي تحيل الإنسان دون التطور و التقدم.

ارتبط المشروع الحضاري للفكرة أساسية و هي الثقافة التي كانت من أهم القضايا التي عالجها مالك بن نبي و كانت شغله الشاغل لبناء شباب واعٍ لقضايا أمته ووطنه وأسرته بل بنفسه قبل كل شيء .

بالرغم من أن هذا المفهوم ارتبط بمعايير تاريخية و أنثروبولوجية و حضارية، و عرفت به الحضارة الغربية نظرا لتطور الحركة العلمية في هذه الحضارة، ولكن انشغلت به أيضا العقول العربية و منهم مالك بن نبي الذي اعتبرها شرطاً ضرورياً للنهضة، بل إن أي مشروع حضاري من دون فكرة أو ثقافة فهو مردود عليه و غير ناجح لأن الثقافة دائما تحتاج إلى مجموعة من الصفات الخلفية و الاجتماعية التي يحيط بذات الفرد و هذا ما طرحناه على المفكرمالك بن نبي ما هي الصفات الأخلاقية و الاجتماعية التي نحتاج نحن اليوم في ظل أزمة القيم بل ظل غياب الفلسفة و لا نقول غياب و لكن نقص,هذا يعني أن تعريفه للثقافة كان تعريفا شاملا و هو له مبررات في ذلك لربما أنه أراد أن يدمج ذات الفرد و قيمة الأخلاقية مع القيم الاجتماعية التي تشكل عالم و علاقات المجتمع و هو بذالك أنه وُصف بعالم الاجتماع و هذا لا تهمنا التسمية بقدر ما تهمنا النظرية و ما تحمل من دلالات واقعية تخرجنا من هذا المأزق الحضاري, فهل ندرك الأمر؟

و أيضا نجد أن مالك بن نبي أكد على وظيفة المثقف و رسالته و ربطها بالجانب العملي خاصة و هو يدرك أن للمثقف مكانه و دوره في المجتمع .

اشترط مالك بن نبي في آخر كتبه على أن رسالة المسلم و دوره أن يحمل الرسالة عمل و خير لهذه الأمة و أن يكون معول بناء و ليس معول هدم .

غير أن الصورة المثالية التي رسمها شاهد القرن للمثقف هي صورة معظمها في السماء و بعضها في الأرض, نحن اليوم نعيش مع مثقف مزيف بل ما تحمل الكلمة من معنى نظراً لأن مؤسسات المجتمع قد زيفته و غيرت له إتجاهه و هدفه, مع وجود اعتبارات سياسية لا يكفي المقام لشرحها فأصبحنا نعيش مع ثلاث أنواع من المثقفين :

- مثقف واعي مستسلم لأمر الواقع .
- مثقف معارض للمجتمع و الدولة و للهوية و الأرض.
- مثقف منقاد للاتجاهات السياسية لا يحمل همّ مجتمعه و مشاكله,بالرغم من أن دور المثقف توظيف حكمته في ما يفيد العباد و الكون و هي الوظيفة التي يشترك فيها مع العلم و الفلسفة.

المبحث الأول : التركيب النفسي للثقافة

أولا: الثقافة و العلم

انطلق شاهد القرن في مشروعه الثقافي من تحليله النفسي للثقافة فهو أراد الإجابة عن سؤال كيف نفهم الثقافة فهما خاصا و مستقلاً, و عبارة التركيب الثقافي أراد من خلالها أن يجيب عن سؤال كيف نطبق الثقافة ؟ أو كيف يمكن أن تكون الثقافة معنى فعلي و واقع في حياتنا ؟.

و لقد حللنا فيما سبق تحليلا نفسيا للثقافة و أشرنا فيه أن الفكر البنيوي أراد أن يجعل للثقافة فهما خاصا بالمجتمعات العربية و والإسلامية, مستقلا وفق خصائص تاريخية و سياسية و دينية للمجتمعات العربية.

أما في تركيبه للثقافة فقد انطلق شاهد القرن من الفرق بين الثقافة و العلم, **فما هو الفرق بينهما** ؟.

انطلق مالك بن نبي في تميزه بين الثقافة و العلم من سؤال مهم هو: ما هي الثقافة التي تنشئ الصلات و الروابط الثقافية في المجتمع و تخلق الفرد الفعَّال.؟

و قد قلنا أيضا فما سبق أن الثقافة يغلب عليها الجانب السلوكي,حيث يذكرنا بن نبي بقوله و لعله يريد دائما أن يوضح فكرته: << **أن الثقافة ليست مجرد علم يتعلمه الإنسان, في المدارس و يطالعه في الكتب** >>[1].

و هذا هو المعنى الشائع للأسف في أذهاننا بأن الثقافة هي مجرد دراسة لبعض الكتب !!!

لذلك هو انطلق بمبدأ في غاية الأهمية و في هذا الصدد يقول: << **علينا أولا أن ننتهي من البلبلة الفكرية المضرة جدا و التي تجعل من كلمة ثقافة مرادفا لكلمة عِلْم** >>[2].

ووفقنا لمنهج الفكري لمالك بن نبي يوضح لنا عبر مثالا واقعيا في قوله: << **أن الطبيب الجزائري يتساوى مع زميله اليهودي أو يفوقه أحيانا فما يتصل بالجانب المهني** >> [3] فمعنى هذا أن كلا من الطبيبين قد

---

[1] مالك بن نبي: تأملات,ص147.

[2] مالك بن نبي: من أجل التغيير, دار الوعي, الجزائر,ط1, 2013, ص54.

[3] مالك بن نبي: تأملات,ص146.

درسًا في نفس المسار، فالعلم و التعليم لا يختلفان تماما ففي بعض الأحيان نجد أن الطبيب الجزائري يفوق كثيرا الطبيب اليهودي فبرامج التعليم و الكتب هي واحدة,و لكن أين مكمن الاختلاف؟

يجيب مالك بن نبي: أن الاختلاف بين الطبيب الجزائري و اليهودي يكمن في اختلافهما في رؤيتهما في المشكلات الاجتماعية التي تحيط بكل منهما, فالوسط و المحيط مختلف تماما بين الاثنين, فالوسط اليهودي في الجزائر هو ليس وسط في البلاد العربية. فتختلف هنا العادات و التقاليد و الأوضاع النفسية، فهو يسميها بالفعالية، التي يراها مالك بن نبي أنها فقدت في المجتمعات العربية بسبب فقدان الصلات الثقافية فهو يقول:<< **فالثقافة إذَا ما تكونت في مجتمع نشأت فيه تلقائيا شبكة الصلات الثقافية و تحدد فيه فعالية الفرد** >>[1].

فإن هذه العوامل المختلفة هي التي تؤثر في شخصية الفرد بحيث يعبر عنها مالك بن نبي بالثقافة حيث يقول<<**على أنها هي الجو المتكون من العادات و التقاليد و أذواق و إذا ما حللنا هذه الكلمات فإننا مع اعتبارنا لكل ما يطبع الشخصية في ظاهرها و باطنها** >>[2]**.** إذاً الاختلاف يمكن في ما يحيط بكل منهما، فالعلم واحد يبنهما والثقافة مختلفة لأنها هي التي تشكل جوانب الشخصية فلا نجدها عند كليهما, و لكن ماذا يضيف العلم و الثقافة في الفرد؟.

يجيب : <<**إن العلم يعطي المعرفة, إنه يعطي اللياقة و المهارة و العلم يعطي امتلاك القيم النفسية التي تولد الأشياء** >>[3] .

و ماذا تعطي الثقافة أيضا ؟<< **فالثقافة تعطي العلم و تعطي امتلاك القيم الإنسانية التي تخلق الحضارة** >>[4]

إذاً إن الثقافة هي التي تصنع العلم و تولده, و العلم هو لا يولد الثقافة و بهذا حسْب بن نبي ليسا مترادفين. لأن العلم وفق هذا يولد الأشياء, يولد التقنية، يضفي الطابع العملي على المنتوجات العلمية و لكن الثقافة : هي القادرة على امتلاك جميع القيم التي تصنع في الأخير الحضارة الإنسانية .

---

(1) مالك بن نبي: تأملات,ص146.

(2) نفسه: ص147.

(3) مالك بن نبي: من أجل التغيير,ص54.

(4) نفسه:ص54.

و يضرب مالك بن نبي أمثلة على ذلك أن مثلا الفيتنام المستعمرة لم تستطيع أن تواجه الاستعمار اللبرالي بالعلم بل بالإدراك و الفهم الذي عرف معناه الفلاح إلى أعلى شخص, و هكذا لم يستطع أيضا الشعب الجزائري* المحتَل أن يجد مخرجا للاستعمار الفرنسي، إلاّ من خلال المعرفة الكاملة بضرورة خروج المستعمِر من بلادنا ليس خروجا عسكريا بل خروجا نفسيا من أذهاننا و ذاواتنا هذا ما يريده بن نبي. و ليست الفئة المتعلمة العلمية هي التي أخرجت الاستعمار بل أخرجه الفلاح و الطبيب و النجار و العجائز و الكهول.

و هي الحقيقة التي نعيشها اليوم أن مشكلة الشعوب العربية أنها أخفقت في طرد الاستعمار و بقيت تعيش تحت وطأة الاستعمار الثقافي الغربي، و هي اليوم تعيش أزمات بعد أزمات و هذا ما نشهده مثلا في اليمن ليبيا, سوريا فهي كما يقول شاهد القرن << **لم تكن القضية قضية إخفاق علم بل إخفاق ثقافة** >>[1] فالثقافة هي التي تكوّن مجتمعا قويا بين جميع عوالمه الثلاثة بين أشخاصه و أشيائه و أفكاره, فما نعانيه اليوم هو فصل بين هذه العوالم التي جعلت بين دولة واحدة تيارات سياسية تناقش في مصير بلدانها مع تيارات سياسة غربية بل أصبح اليوم أن العالم الغربي وتياراته هم أولى بنا في بلداننا,فما هو الحل؟.

يجيب بن نبي بقوله:<< **في كل الاوقات الصعبة في التاريخ: الثقافة هي التي تكوّن طوق النجاة للمجتمع حين يتعرض لخطر الغرق**>>[2].

فالثقافة إذاً هي الممر للنجاة من كل النكسات التي تقع لأي شعب.

يضيف مالك بن نبي بين تمييز للثقافة و العلم, إن العلم لا يتميز بالشخص بل هو موضوعي تغيب عنه الذاتية فهو أي رجل العلم عالما مراقبا لتغيرات الظواهر و يراقب الأشياء لكي يسيطر عليها و يعمل على تجميلها.

و لكن الثقافة هي أكثر و اكبر من ذلك فهي حسب شاهد القرن هي من تخلق الإنسان و تخلق رجل العلم بل هي التي تجعل الإنسان يراقب ذاته قبل كل شيء فهي << **تلك النظرة الغزالي أو باسكال اللذين كانا يبحثان عن**

* كلما يتكلم مالك بن نبي عن الاستعمار إلاّ وذكر الاستعمار الفرنسي بالجزائر و كلما ناقش فكرة معاصرة إلاّ و ضرب مثالا بالجزائر مما يدل على مدى تعلقه لوطنه .

[1] مالك بن نبي : من أجل التغبير,ص55.

[2] نفسه:ص55.

تناسق بين عالم الظواهر و عالم الداخل, تلك هي النظرة التي تسمح للإنسان أن يسيطر على ذاته, و أن يسيطر على الأشياء التي ابتدعتها عبقريته>>[1].

إذاً لقد ميز مالك بن نبي الثقافة و العلم و اعتبر أن الثقافة هي أوثق صلة بالشخصية فهي اكبر من جمع معلومات معينه, فهي نظرية سلوكية أكثر منها معرفية فهي سلوكا و محيطا و شخصية وطباعا وذوقا و حركة و نغما و لونا ولكي تكون الثقافة هكذا يقر ين نبي أنه:<< **إنه لمن أولويات واجبنا أن تعود الثقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي ولذلك يجب أن نحددها كعامل تاريخي لكي نفهمها, ثم كنظام تربوي تطبيقي لنشرها بين طبقات المجتمع**>>[2], معنى هذا أن مالك بن نبي أراد من خلال هذا يجعل مفهوم الثقافة مفهوما لكي نفهمها و نذكرها و نفسرها و نحللها وهذا ما نحتاجه فهناك من لا يفهم الثقافة بل لا يعرف حتى معناها, فعندما نحدد الفهم الكامل للثقافة كمفهوم, يسهل علينا فما بعد أن نجعلها و نحولها إلى عملية تركيبية ضرورية لتحقيق و تطبيق هذه الأشياء التي منحنا إياها الفهم للثقافة.

ولا نتسنى لنا هذا الفهم إلا من خلال منهج يحدد لنا طبيعة و محددات هذا الفهم للثقافة، و هذا المنهج ربط فيه مالك بن نبي بين الثقافة و التاريخ و الثقافة و التربية.

ثانيا: معنى الثقافة في التاريخ و التربية

ربط بن نبي الثقافة و التاريخ و جعل كل منهما مكملا للآخر و بينهما علاقة و ظيفية وجعل من الثقافة تاريخا ومن التاريخ لثقافة فهو يقول: << **لا يمكن لنا أن نتصور تاريخا بلا ثقافة, فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتما تاريخه**>>[3] فالثقافة هي من بداية آدم هي محيط بدأ الإنسان للحرك بداخلنا بل هي تاريخ مجتمع متحضر فهي الوسط الذي يشكل فيه جميع خصائص الإنسان و المجتمع المتحضر، فهي معنى الكتلة التي تحمل عادات وعبقريات و أذواق وعواطف فهي بلغة مالك بن نبي:<< **بعبارة جامعة هي ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة و يحدد قطبيها:من عقلية ابن خلدون و روحانية الغزالي أو عقلية ديكارت و روحانية جان دارك هذا هو معنى الثقافة في التاريخ** >>[4], فهي إذاً كل ما يَّشكله الحداد و الفنان و الراعي و العالم و الإمام و بهذا

---

(1) مالك بن نبي : من أجل التغبير, ص55.

(2) مالك بن نبي: شروط النهضة, ص129.

(3) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة, ص76.

(4) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة, ص77.

يتركب التاريخ و يُصنع, هذا معنى الثقافة في التاريخ فهو كل ما يصنعه طبقات المجتمع المختلفة عبر هذا التاريخ الإنساني.

و لقد أراد مالك بن نبي أن يسعى إلى أن يجعل الثقافة نظاما تربويا شامل لذلك أراد ان يربطها بالتربية فما معنى الثقافة في التربية؟.

يتجلى معنى الثقافة في التربية من خلال تحديد صياغة هدفها, باعتبار أن الثقافة هي ليست علما يخص طبقة من طبقات الشعب, بل إنها دستور و قانون يفرضه الحياة العامة، فهي الطريق و الممر الذي يعبر الناس إليه, فالثقافة والتربية تجمع بين راعي الغنم و العالم هذا الجمع نقضي فيه مقتضات الحياة العامة: لأن وظيفة الثقافة هي كالدم الذي تغذي الجسم فهي التي تغذي المجتمع حيث يقول:<< **الثقافة هي ذلك الدّم في جسم المجتمع يغذي حضارته**>>[1], فالثقافة هي التي تتدخل في جميع شؤون الفرد و خصوصياته و هي التي تسعى إلي بناء مجتمع وحضارته فهي وظيفتها تكمن في بناء لكل من الفرد و المجتمع .

ومن خلال هذا نستنتج أن الثقافة تتحول إلى أسلوب حياة في المجتمع بحيث تسعى إلى التأثير على كافة أطياف المجتمع و هذا من خلال أن مالك بن نبي قد اشترط أنْ يرتبط الثقافة بفصولها و عناصرها لكي تصبح الثقافة هي دستورا للمجتمع عبر عناصر الثقافة.

لذلك حدد مالك بن نبي عناصر أربعة للثقافة وفق برنامج تربوي و هو يتألف و يتركب من عنصر الأخلاق من أجل تكوين الصلات الاجتماعية و الروابط الاجتماعية, و عنصر الجمال من أجل تكوين الذوق العام و منطلق عملي من أجل تحديد أشكال النشاط العام و الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع أو الصناعة حسب التعبير الخلدوني .

[1] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة:ص78.

ثالثا: العناصر الثقافية و أثرها على القيم

أ- التوجيه الأخلاقي:

لقد طرح مالك بن نبي مشكلة الثقافة وحدد مفهومها اللغوي التاريخي و الاجتماعي، و كما قلنا سابقا لاتهمه الدراسة النظرية بقدر ما يحاول بناء الثقافة على أسس ثقافية أولى هذه العناصر الثقافية هو العنصر الأخلاقي.

و لقد إهتم مالك بن نبي في مشروعه الثقافي لعنصر الأخلاق، هذه الأخيرة **هي سلوك يتفاعل فيه الضمير و الفكر و العاطفة و الإرادة و التنفيذ و العادة, و كل هذه تّكون وحدة سلوكية أخلاقية نعيشها في واقع الحياة اليومية و طبيعة اختيارات الأفراد و الأمم لأنماط السلوك هي ما يكون القيم لتلك الأفراد و الأمم و هي ما تعطي كل أمة طابعها الأخلاقي الخاص بها, الطابع الذي يميزها عن غيرها من الأمم.** [1]

و لقد تناول مالك بن نبي فكرة الأخلاق في إطار الدين أو ما يسميه (**بالفكرة الدينية**) فالفكرة الدينية تصبح مركزا أساسيا لأي بناء حضاري أو تفاعل حضاري, فالتفاعل عملية فكرية روحية تسمو بقيمها المطلقة فساهم في البناء و تدفع إلى الأمام و إلى الأعلى حتى إذا نزلت إلى مستوى المادة تحول التفاعل الحضاري إلى صدام حضاري[2].

ولهذا عُرفت الأخلاق عند ابن نبي بأنها محور النمو الاجتماعي و الثقافي و الاقتصادي [3]، و دور الأخلاق عند مالك بن نبي في مشروعه كانت من أجل تقوية الروابط بين الأفراد المجتمع الواحد فهو في ذلك يقول:<< **إن فعالية المجتمعات تزيد أو تنقص بقدر ما يزيد فيها تأثير المبدأ الأخلاقي أو ينتقص**>>[4] .

هذا ما أراده مالك بن نبي من الأخلاق بأن ا يكون أداة عملية تعمل على ضبط النفسي و الاتزان الشخص و هي في نفس الوقت هي جوهر الواقع، هو الميدان الذي تحيا فيه الحضارة و تنمو و تتقدم.

أما عن تأثير المبدأ الأخلاقي في الثقافة فإنه يرى مالك بن نبي هو المقوم الأساسي للثقافة فهو يأتي من السماء ليوثق الصلة بين أفراد المجتمع بحيث يجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا هذه الروح الخلقية هي منحة من السماء إلى الأرض تأتينا مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات.

---

[1] محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي,ط1,الدار التونسية,تونس 1972,ص144,ص145.

[2] اسماعيل سامعي: مالك بن نبي و الفقه الحضاري,دار الهدى, الجزائر 2006,ص67.

[3] عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي,دار الشهاب , الجزائر,ص110.

[4] مالك بن نبي: تأملات ,ص148.

و مهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى<< **و ألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم لكن الله ألف بينهم, إنه عزيز حكيم**>> [سورة الأنفال63].

فبهذا المبدأ بمثابة المؤشر لانطلاق الحضارة, و لذلك نجد أن مالك بن نبي يبرر لنا اثر هذا المبدأ الأخلاقي حتى في الحضارة الغربية حيث يقول: <<**فان أكبر مصادر خطئنا في تقدير المدينة الغربية أننا ننظر إلى منتجاتها و كأنها نتيجة علوم و فنون و صناعات, و ننسى أن هذه العلوم و الفنون و الصناعات ما كان لها أن توجد لولا صلات اجتماعية خاصة, لا نتصور هذه الصناعات و الفنون بدونها, فهي الأساس الخلقي الذي قام عليه صرح المدينة الغربية من علوم و فنون, بحيث لو ألغينا ذلك الأساس لسرى الإلغاء على جميع ما تشاهده اليوم من علوم و فنون** >>[1] ,فهذا القول يؤكد لنا أن الحضارة ما كان لها أن تقوم لولا هذا المبدأ الأخلاقي و المظاهر المتعددة التي تبين لنا العنصر الأخلاقي مثلا المصنوع البشري للراديو الذي كان نتيجة لمجموعة من الجهود العلمية و الفنية كانت الروابط المعنوية دافعا له, عندها هؤلاء العلماء "**لهرتز**" و "**ماركوني**" و غيرهم فان أي مظهر من مظاهر الحضارة الغربية يرجع إلى الرابط الديني الذي بعث إلى نشوء الحضارة.

و بهذا فإن الثقافة كلما كانت مرتبطة بالاخلاق كلما كانت ايجابية و كلما ركد الجانب الأخلاقي ركدت الثقافة فانها لا يمكن أن تكون أسلوب حياة في مجتمع إلاّ إذا ارتكزت على المبدأ الأخلاقي فهو في هذا الصدد يقول<< **فإذا قررنا وجود هذا العنصر بوصفه ضرروة منطقية اجتماعية فإننا نكون قد وضعنا فصلا هاما من فصول الثقافة** >>[2] ,وهو بذلك يقصد العنصر الأخلاقي.

فلأخلاق هي تركيب تربوي لجميع عناصر الثقافي وهي أولى المقومات في الخطة التربوية لأي ثقافة.

إذاً الأخلاق تعمل على بناء مجتمع مترابط و متماسك بين أفراده، و هي من أهم عناصر الثقافة التي تعمل على بعث الحضارة و قيام مجتمع متحضر في جميع الميادين فهو يقول<< **قوة التماسك هذه جديرة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشودة** >>[3] ,و لا يمكن لأي ثقافة أن تنهض بل و يبقى في مسار الثقافات الحية إلا ببعث القيم الأخلاقية التي بدورها تحقق اللحمة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد .

---

(1) مالك بن نبي: تأملات,ص135.

(2) نفسه:ص148.

(3) مالك بن نبي:مشكلة الثقافة,ص 81.

فنفهم أن العنصر الأخلاقي هو من يحدد الغايات و الأهداف الدوافع لأي مجتمع و لكن مَن يطبع هذه العلاقات بصورة معينة و يعطيها ذوقا معينا ؟.

هنا التجأ شاهد القرن إلى لبنة ثانية من لبنات الثقافة و هو العنصر الجمالي أو ما يسمى بالتوجيه الجمالي.

ب – التوجيه الجمالي:

إذا كانت الأخلاق اعتبارها بن نبي إرادة القوة و هو يقول:<< **أرسي القرآن في ضمير المسلم تحديدا جوهريا لإرادة القوة** >>[1] وهي الدافع القوي لأي نشاط أخلاقي لتكوين عمل حضاري.

و الجمال بهذا هو من يضيف للعمل الأخلاقي ذوقه، لكي لا يكون جافا فهو يقول << **فبالبذوق الجميل الذي ينطبع فكر الفرد يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل و توخياً إلى الكريم من العادات**>>[2] .

فإذا كانت الأخلاق قد جمعت فالجمال يعطينا قيما جمالية لهذه العلاقة فهو يقول:<< **أن تمنحنا الثقافة قيما جمالية إذ للمجتمع الذي تأسس و تكون يتطلب صورة و مظهر, يتطلب تنظيمه الشكلي من حيث ملبسه, معاشه, ترتيب أشياء بيته**>>[3] وهكذا فان الجمال هو من يضفي الطابع الجمالي في حياتنا فهو يساهم بهذا الجمال أن يكون جزءا من حل مشكلاتنا اليومية,كما أن الإسلام لم يهمل و لم يزهد هذا الجانب لأننا نرى في القرآن الكريم يذكر الجمال في البغال فيقول المولى عز وجل:<<**و لكم فيها جمالا حين تريحون و حين تسرحون**>> [النحل 06] والجمال هو من يضفي طابع المصلحة لا المنفعة في الحياة و هو بذلك يقول << **كلمة الجمال ليست نفعية، الركوب مصلحي, فعندما يركب البغال و الحمير نقضي مصالحنا و لكن القرآن يبرز قيمة أخرى هي القيمة الجمالية** >>[4].

فالثقافة إذاً عليها أن تكفل الجانب الذوق الجمالي لكي تؤسس قيم ثقافية واجتماعية يعمل التاريخ على تسجيلها و تدوينها لأن التاريخ عبارة عن مذكرة لأهم الحركات و الأفكار التي يقدمها الفرد للمجتمع و بذلك يكون الفرد بحاجة إلى منطق عملي أو ما يسميه بن نبي بالفعالية .

---

(1) مالك بن نبي الفكرة الإفريقية الآسيوية, ترجمة عبد الصبور شاهين, دار الوعي الجزائر, ط1 ,2013,ص232.

(2) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة,ص82.

(3) مالك بن نبي: مجالس دمشق,دار الوعي,الجزائر,ط1,ص110.

(4) نفسه: ص110.

ج – المنطق العملي:

المجتمع الذي تحققت فيه الوحدة نشأ في الرباط بين أفراده وتحققت صورته الجمالية و تحقق شكله فله حاجات ضرورية و يومية تتحقق نشأة الفعالية, و المنطق العملي هو تركيب الحركات حسب نتيجتها بمعنى ربح الوقت و القيام بأعظم الأعمال في أقل الأوقات و أقل التكاليف, هذا يعني انه لا مجال للعبث بالوقت و نحن أحوج إليه اليوم في حياتنا: << **نحن أحوج ما نكون إلى هذا المنطق لأن العقل المجرد متوفر لدينا غير أن العقل المنطقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة و الانتباه سيئ يكاد معدوما** >>[1] لذلك نحن اليوم نعيش عالم تنقصه الفعالية والحركية و هذا ما ينقصنا في سلوكنا الاجتماعي، الذي هو جامد و خامد و ما يزيد الجرح أن المثقف العربي لا يتحرك, فلأن الأفكار هي موجودة سواء في الماضي أو الحاضر و لكن ماذا ينقصنا؟ يجيب شاهد القرن : << **إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة و لكن منطق العمل و الحركة**>>[2] هذا للأسف هو حالنا فالأفكار تناقش و تعدم و تحيا و لكن الواقع العمل و الحركة للأسف هو نفسه بالرغم من أن الواقع هو أغني من كل فكرة أو نظرية لأن الشعوب تعلم أنه إذا اختل المنطق العملي فهذا يؤدي إلى العبث [3]و العبث له دلالة في عمقنا الاجتماعي الذي عشناه في الماضي و نحن نعيشه في الحاضر و التاريخ يمر لكي يذكر من كان شغله الشاغل إعمار الوقت بما يفيد الأرض و الكون.

و إن المبادئ و العناصر الثقافية سابقة الذكر هي عبارة عن مفاهيم في ذات الإنسان وماهيته فهو أخلاقي و كائن جمالي و الجمال بدوره يحرك الهمم و يحقق شرط الفعالية التي تعطي للفرد في سلوكه حيوية و عملا، لكن هذه العناصر الثقافية الثلاثة هي مفاهيم وحدها في عالم الإنسان بين الأخلاقي و الجمالي و العملي فكيف يمكن أن تتركب الثقافة ضمن هذه العناصر؟.

اقترح مالك بن نبي لكي لا تكون أشياء مجرد فلزم من وسائل نضعها في أيدينا و هذه الوسائل يعطينا إياها العلم أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون و بذلك أضاف شاهد القرن عنصرا آخر هو الصناعة أو التقنية .

د– التوجيه الفني أو الصناعة:

---

[1] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة,ص86.

[2] مالك بن نبي: شروط النهضة,ص147.

[3] مالك بن نبي: مجالس دمشق,ص111.

و هذا يعتبر الشرط الأخير في بناء ثقافة مع اختلاف المهن و الوظائف حيث يقول:<< **إن كل الفنون و المهن و القدرات و تطبيقات العلوم تدخل في مفهوم الصناعة** >>[1] و أن الصناعة هي التي تحقق كسب العيش للفرد وهي التي تحافظ على كيانه و استمراره لكي يستطيع أن يبني مجده و حضارته, و لكي يحقق الفرد هذا الهدف يقترح شاهد القرن ضرورة إنشاء مجلس للتوجيه الفني لكي يستطيع سد الفراغ الموجود في المجتمع .

و يمكن أن نقول أنه لقيام ثقافة معينة في مجتمع معين: يجب أن تقوم علاقات بين أفراد المجتمع على أساس أخلاقي لكي نحقق معنى الإرادة في العمل و القوة فيه, و تحدد هذه الصورة فيه ذوق جماليا يحددها بصورة سريعة وفي وقت اقل المنطق العملي، و هو في الأخير هذا العمل يتطلب تطبيق مجموعة من الوسائل و الإمكانيات المادية يوفرها العلم و هي بالترتيب لا وجود لأفضليه عنصر على آخر يقول:<< **أن الثقافة تشمل على أربعة فصول فصل الأخلاق و فصل جمال و فصل منطق عملي وفصل علم.**[2] >> و بطبيعة الحال أن لكل تقديم على عنصر تحدد اتجاه الثقافة و اتجاه الحضارة.

إلاّ أن إسقاط هذه العناصر على ارض الواقع يقر أن مالك بن نبي قد أكد أن الحضارة الإسلامية –و هذا ما يهمنا– قد انزلقت في سيطرة العلم على أوضاع الثقافة هذا الوضع قد يحيلنا إلى أزمة ثقافية <<**فالأزمة إذا تولدت لأننا تناولنا العلم على أنه ثقافة**>>[3] فعندما جعلنا العلم ثقافة فإنه نعيش أزمة ثقافية و إذا عشنا أزمة ثقافية معنى هذا أننا نعيش أزمة حضارية في كافة المستويات. لأنه إذاً كان الاتجاه علمي للثقافة فإنها تغيب الأخلاق و تغيب الروح التي هي المحركة لكل عمل إنساني و هذا ما نشاهده في الواقع بداية انتشار ثقافية غاب فيها معنى الأخلاق مما يحيلنا بطبيعة الحال إلى القول بأن هناك ركود ثقافي لأن هناك ركود أخلاقي مما يعني حضور أزمة الثقافية منطقيا.

وسنستخلص مما سبق أن المشروع الثقافي في البناء الحضاري لمالك بن نبي ارتكز على مجموعة من المقومات الأساسية, حيث الإنسان الذي هو منبع الحل وهو مفتاحه، فإذا شرع هذا الإنسان في العمل فقد انطلق مشروعه

---

(1) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة,ص88.

(2) مالك بن نبي: تأملات,ص 152.

(3) مالك بن نبي: مجالس دمشق,ص112.

الحضاري, هذا الإنسان يحتاج دائما إلى توجيها لكي يكون قوة إنسانية حضارية كي يحقق الهدف الاسمي عبر توجيها لجميع أعماله و ثقافته.

و الثقافة هي عالم مفتوح حدده بن نبي بين عوالم ثلاثة تتفاعل فيها جميعا بين الأشخاص و الأفكار و الأشياء فكلما كانت هذه العوامل بينها تناسق و نظام كلما كانت الثقافة ثقافة ذو فاعلية, و كلما ارتفع عالم عن عالم آخر حدث اضطراب، و كانت الثقافة مضطربة و لكن حدد مالك بن نبي مفهوما خاصة للثقافة ميزة عن باقي المجتمعات الأخرى لأن مشكلة الثقافة عندنا هي ليست عند غيرنا و الحل هو عند الذات البشرية لا عند الآخر.

أعطى الفكر البنيوي للثقافة مفهوما ربطه بالجانب السلوكي العلمي أكثر منه المعرفي لأن المجتمع اليوم في نظر بن نبي بحاجة للعمل و ليس للفكرة لأن الأفكار موجودة فهو يحتاج إلى توجيه الأفكار لكي يتغير العالم.

و لكي يتغير العالم و التاريخ حدد مجموعة من العناصر لكي نسعى إلى تطبيق الثقافة على أرض الواقع في ظل تعدد و تنوع القيم خصص أربعة عناصر تربوية لكي تكون هناك ثقافة واعية و هي تربية أخلاقية التي تعمل على توجيه القيم إلى ضمير الفرد لتجعل منه طاقة روحية و حية يظهر مردودها في افعاله و تصرفاته و من أجل تشكيل و بناء شبكة العلاقات الاجتماعية التي في نظره قد اندثرت و اندثرت معها القيم و اصبحنا في ما يعرف بمشكلة القيم فحدد مالك بن نبي هذا العنصر الأخلاقي و أعطاه بعدا هاما في نظرته الثقافية من أجل تبليغ رسالة و تحمل مسؤولية العمل التاريخ الذي يعدد المجتمع إلى حضارة مرة ثانية .

رابعا: التوجيه الأخلاقي و الجمالي و إشكالية القيم

وإن الحديث عن المبدأ الأخلاقي يجرنا حتما إلى الحديث عن المبدأ الجمالي فهو أساس من أسس المنهج التربوي و إن أهمية هذه العلاقة في تركيبه الثقافة تحددها المعادلة التالية: **مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = اتجاه الحضارة*** ولقد اعتبر بن نبي أن هذه العلاقة تقدم فيها جانب له علاقة بالقيم حيث يقول: << **هذه العلاقة تأتي في ترتيب خاص يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على ذوق الجمال في سلّم القيم الثقافية, حتى تتكون نموذج معين من المجتمع سببه هذا الترتيب**>>[1]. وإن أولوية عنصر على عنصر آخر و نقصد هنا المبدأ الأخلاقي و المبدأ

[1] مالك بن نبي: شروط النهضة,ص 154.

* إن المعادلة الجبرية التي استنتجها مالك بن نبي تدل على مدى تعمقه في الرياضيات ,و هذا إن دلّ إنما يديل على مدى تكامل الجانب المعرفي لمالك بن نبي و هذا ما يقودنا إلى القول بمدى علمية المنهج الفكري لمالك بن نبي.

الجمالي يحدد طبيعة الثقافة بل اتجاه الحضارة حيث يقول:<< **فالأولوية التي تمثلها أحد المبدأين في تركيب الثقافة تحدد ذاتيتها كما تحدد به اتجاه عام للحضارة**>>[1].

و هذا يحيلنا بطبيعة المجتمعات إذا كان إتجاه للحكم فيه المبدأ الأخلاقي أو الذوق الجمالي يكون هناك نموذجين من المجتمع << **نموذج يقوم فيه النشاط على الدوافع الجمالية و نموذج يقوم فيه النشاط على الدوافع الأخلاقية أولاً** >>[2].

إذاً أن الاختلاف القائم بين هذين في المجتمع ليس شكلي بقدر ما هو ضمني أو جوهري و هذا ما عبر عنه شاهد القرن: << **هذا الاختلاف الأساسي ليس مجرد اختلاف شكلي إنه يؤدي إلى نتائج تاريخية ذات أهمية كبيرة**>>[3],و هذا ما يؤكد بطبيعة الحال الماضي و الحاضر معا بحيث أن في الماضي كان للاتجاه الأخلاقي دور في بناء حضارة و مرحلة الروح و كان للأخلاق قوة سامية في إبراز قوة الروحية للإنسان في القضاء على الغرائز التي وتحيل دون أداء الإنسان رسالته.

و يضرب شاهد القرن مثالا أيضا من تاريخ الحضارات:

1-إن المجتمع الغربي قد يعيش فنا و هو الفن التصويري الذي يقوم بتصوير المرآة العارية نتيجة دوافع جمالية, في حين يجد خلف آثاراً في التصوير و هو ما شاهده اليوم في متاحف الحضارة الغربية لأن القيم الأخلاقية تجعل الفنان في العالم الإسلامي لا يطلق العنان للفنان بان تحرك فيه جميع ألوان الجمال و خاصة المرآة العارية.

2- أمّا تطور الملابس في المجتمع الغربي قد انطلق من أجل أن يبرز جمال المرآة في جسدها ومظهرها ولكن تطور ملابس المرآة في المجتمع الإسلامي قد يخص جمال المرأة في الشارع مثل ملاية اللف.

و لكن القول بهذا المثال يجعلنا نقول أن المرأة حتى في المجتمع الإسلامي أصبحت ذات اتجاه جمالي من أجل إبراز جمالها, نظرا لغياب الإخلاف في ثقافتنا و نقص نبض القيم الأخلاقية فنحن في وضع مأساوي للقيم بحيث انقلبت و أصبحت القيم الجمالية هي التي تتحكم في القيم الثقافية.

و يعود هذا الاختلاف بين ثقافتين في المجتمع الإسلامي و الغربي يخضع إلى العادات و التقاليد بحيث يعود هذا حسب قوله:<< **الإختلاف يعود الأصول البعيدة فالثقافة الغربية قد ورثت الجمال من التراث**

---

(1) مالك بن نبي: تأملات,ص 53.

(2) مالك بن نبي: شروط النهضة,ص 155.

(3) نفسه,ص 155.

اليوناني الروماني أمّا الثقافة الإسلامية من ميراث وقادة الأسماء من إبراهيم إلى محمد صلى الله عليه وسلم >[1] ويعتبر مالك بن نبي أن كل ثقافة يتضمن قيم أخلاقية و ذوق جمالي فهي يعبر عن عبقرية مجتمع معين، فهي التي تحدد حتى اتجاه في التاريخ فما بالك بالإنتاجات العلمية و الأدبية.

و لو نتأمل إلى واقعية العناصر الثقافية التي حددها مالك بن نبي من أجل تكوين عالم ثقافي موحد في ظل بروز قيم هي : عدم التفكر في الآخر و التعصب للرأي و الإستعمار بطرق جديدة مثل العولمة، الشركات الأجنبية و حتى الأفكار التي تبدوا وتحمل جمالا في ذاتها مثل الحرية , الديمقراطية, التواصل قد جعلها اليوم الحضارة الغربية بسبب إنها قدمت عنصر على حساب عنصر آخر وهو مثلا قد حددت حتى العلاقة بين الإنسان الأوربي و الإنسانية جمعاء فنجد أن ظاهرة الإستعمار كظاهرة ثقافية يدل على أن الثقافة الغربية وعندما نقول الثقافية الغربية نعني بها العقل الغربي قد حددت علاقة الإنسان الأوربي بالإنسانية، و هذا تأثير بطبيعة الحال نتج على ترتيب القيم فتصبح القيم الأخلاقية على حساب القيم الجمالية مما يدعو ذلك إلى نشوء ثقافة قوة وسيطرة وهيمنة, و هو يقول في هذا الصدد :

<< **فكل ثقافة تسيطر هي في أساسها ثقافة تنمو فيها القيم الجمالية على حساب القيم الأخلاقية**>>[2] وهذه النتيجة التي توصل إليها بن نبي إثر تقديم عنصر على آخر لأن له تأثير على جانب القيم، فنلاحظ أن هذا التقديم قد تنج قيم جديدة و دخلنا في إشكالية القيم بين الأنا و الآخر.

و هذا ما نلاحظه في حضاراتنا اليوم إن نعيش ثقافة في الوطن الغربي ثقافة مغلوب على أمرها بلغة ابن خلدون نظراً للقطبية بين عالمين في الجانب السياسي و الإقتصادي و الإجتماعي و الثقافي، القوى في العالم الغربي و الضعيف في العالم المتخلف، فثقافة العالم هي الغربي هي الثقافة المسيطرة والمهيمنه تدعو إلى صدام مع الآخر بل والقضاء عليه، وهذا ما نعيشه يومياً نظراً لتقدم عنصر الجمال في الثقافة الغربية المعاصرة، ولكن ما هو نهاية هذا الثقافات التي تمنح الأولوية الجمالية على حساب القيم الأخلاقية ؟

بجيب شاهد القرن:<< **إن الثقافة تمنح الألوية لذوق الجمال تغذي حضارة تنتهي إلى فضيحة حمراء يقود جنونها رجل مثل نبرون أو امرأة مثل سيتالين وذلك لأنها تسيطر عليها دوافع الأنوثة** >>[3].

---

[1] مالك بن نبي: شروط النهضة,ص 157.

[2] نفسه:ص 158.

[3] نفسه:ص 158.

وهو في الواقع أن هناك من يؤكد أن نهاية هذه الثقافة حتماً نظراً لأنها لم تقم على أسس ثابتة وهذا ما يجعل دائماً المهتمون بالشأن الثقافي يؤكدون أن هناك ثقافة تموت و ثقافة تضمحل (الثقافة الأيرانية,الماليزية) و إن تقديم عنصر الأخلاقي أيضا بل حساب الميادين الأخرى خاصة الذوق الجمالي مإذاً يكون نهاية هذه الثقافات؟ "**إن الثقافة التي تمنح الأولوية للمبدأ الأخلاقي تكون حضارة مآلها التحجر و الجمود إلى فضيحة صامته سوداء**"[1], و هذا ما يؤكده التاريخ البشري أنّ المجتمعات قد عاشت مرحلة التصوف نظراً لأن ثقافيها قد ارتكزت على الجانب خلقي فقط وروحي يدعوا إلى الاتصال بالله و التفكير في ذاته و الزهد في الدنيا و الركود إلى جنه الآخرة حسب تصرفهم واعتقادهم, وهذا حتى حاليا فإن هناك ثقافات هي موجودة في واقعنا بل في مجتمعاتنا بل في شوارعنا و معنا في مقاعد الدراسة و في المرافق الأكاديمية من يدعوا إلى هذه الثقافة القائمة فقط على ركن أخلاقي في حين هناك اليوم من يفكر في العيش بمواقع أخرى فلم تكفه الأرض ففكر في السماء و هكذا .

و إن تقديم أو تأخير عنصر على عنصر آخر في عالم الثقافة فإنه يؤثر في عالم السياسة مما يؤدي إلى تأسيس ديمقراطية كمنهج سياسي يجعل من حرية الفرد هدفها و ذالك بدافع جمالي و ديمقراطية تعمل على استبعاد المجتمع بدل الفرد وذالك وفق دافع أخلاقي و هذا حسب مالك بن نبي .

و عليه فإن موقف مالك بن نبي من مشكلة توجيه الثقافة يؤكد على ضرورة مراعاة جميع الاعتبارات وفق ضروريات الحياة و مطالبها، علماً أن لكل حضارة تواجه هذه العناصر الثقافية إلاّ أن الاختلاف يكمن<< **تأثيرها يختلف في الحياة و التاريخ بحسب ترتيبها على سلم القيم المصطلح عليها**>>[2], فإن تقديم عنصر على عنصر آخر فإنه سوف يؤثر على سلامة سلم القيم بحيث يدعوا بن نبي إلى توازن هذه العناصر لكي يحقق عالم ثقافي في ظل سلم القيم الذي يعرف اهتزازات في ظل المستجدات الجديدة بحيث أن لكل عنصر و أهمية .

فمثلا عنصر الجمال لا يجب أن يبقى في هياكل المسرح و الموسيقى و الشعر بل علينا أن نوجه نشاطنا الجمالي حتى في طريقة زراعة البصل و الكرنب في حين أن نأمل أن تكون حياتنا جميعها لوحة جميلة و أنشودة منغومة قصيدة وحركة ونشاطا متناغما، وبهذا فإن أي خلل يحدث هذه العلاقات و العناصر الثقافية فإنه تنهى إلى خلل و عندما يكون هناك خلل يعني خلل حضاري و هذا ما نشاهده اليوم من خلل لسبب ما آلت إليه الثقافة الغربية التي تدعونا إلى كثير من التأمل في الوقت بدأت فيه الحضارة و الثقافة الإسلامية تحدد نمط ثقافتها فإننا علينا أن ندير جهاز ثقافي للتحكم في هذه العناصر الأربعة .

---

[1] مالك بن نبي: شروط النهضة,ص 159.

[2] نفسه: ص 159.

ولكي لا نعيش في عالم أصبحت للكلاب حمامات و فيها الناس يموتون جوعاً وهذا ما هو كائن في المجتمعات التي تصدر فيها الجمال على شعور قوم و على ثقافتهم .

بل ما ندعو إليه اليوم و في ظل الوقع الراهن أن نرتب عناصر الثقافة لكي لا نعيش ثقافة رقص و هرج و مرج و هذا هو حال الثقافة للأسف, بل أنه في بعض الأحيان نندم عندما نتكلم عن وضع الثقافة في بلدانا بل إنني تحصرّت حزناً و أنا أتطرق إلى هذه النقطة بالذات و لكن لعلّ الله يحدث أمراً في هذه الأوطان التي تحاول بأن تنهض بثقافتنا من وضع إلى وضع آخر في حين ترصد الأعين الثقافية الغربية التي حكمت بجمال على القيم الأخلاقية مما جعلنا اليوم نعيش بين ثقافة القوي و ثقافة الضعيف، مما جعل البعض يدعو إلى حوار بين الثقافيين أو إلى صدام بين ثقافتين و هكذا .

و لكي تعود ثقافة المسلم على المسلم أن يسأل نفسه: أين بني قومي؟ لكي أربط بينهم صلة روحية و أخلاقية.

أين جمال الكون؟ جمال الكون في النفس فكن جميلا ترى الوجود جميلاً.

أبن مهنتي و عملي و أين كرامتي؟ الكرامة في العمل .

في حين أين وسائلي؟ فالوسائل هي في اليد و العقل و القلب لبناء حضارة عالمية يسعى إليها الجميع و ينشدها الإنسانية جمعاء .

و لا يسعنا إلا أن نقول بأن عالم الثقافة هو عالم وفق عناصر ثقافية شملت الأخلاق والجمال و العمل والتقنية و أن أي تقديم أو تأخير في عنصر من هذه العناصر يحيل إلى خلل في القيم و هذا يضعنا أمام مأزق وعدة من المشكلات لأنه حسب ابن نبي إذا عشنا ثقافة من دون فكر أو فعالية ،فالفعالية و الفكر تغير الثقافة و الثقافة من دون فكرة فهي ريشة و ترف لاتزن شيئاً من موازين التاريخ و الثقافة من دون فعالية فهي طريق أعمى يحيلنا دون التقدم ، فمتى سطعت الأخلاق و مدى كثر إشعاعها في زمن العلم و التقنية يجعل ضمير الفرد حيا، بما يضبط طاقته الحيوية و بوجهها نحو طاقات سامية، وهو بحاجة إلى جمال المحيط وكلما زاد جمال المحيط زاد الخيال و الجميل عند الأفراد.

المسلم اليوم هو بحاجة إلى العقل التطبيقي الذي يعمل على تعليم الفرد كيف ينشئ المقاييس الصالحة التي تمدّه التجربة من أن ينشئ المقاييس الصالحة، و التي تمكن من إصدار أحكام صحيحة و موضوعية على الأشياء التي تتعامل وفقها و الصناعة التي هي أساس تكتمل به البرنامج التربوي الثقافي و بذالك نكون قد أسستنا لعالم ثقافي متعدد و متنوع حققنا فيه شبكة العلاقات الاجتماعية القاعة على التفاعل المنظم مع جميع العوالم والأفكار

والأشخاص و الأشياء وفقا لعنصر الفعالية التي دائما الطاقة الحيوية التي يجب أن يتصف بها الإنسان و خاصة الإنسان العربي المسلم الذي هو اليوم يعيش ثقافه الاستسلام للواقع, و هذا حتما يؤدي بنا إلى العيش من دون كرامة لأن الكرامة اليوم هي ليست أصالة, وليست معاصرة ،أو دين أو حوار, أو فلسفة ،أو علم, بقدر ما هي في كلمتين: **ثقـافة عمـل** .

المبحث الثاني:سِمَات الثقافة الإسلامية المعاصرة

انتهينا في المبحث السابق أن مالك بن نبي قد حدد عالم الثقافة في ضوء مسألة القيم و أكد على ضرورة تناغم و انسجام هذه العناصر الثقافية لكي يحقق لنا فعالية المسلم و حركتيه و إهتم بضرورة المبدأ الأخلاقي لصنع ثقافة تنسجم مع المنطق الجمالي و المنطق العملي لتكشف جميع الوسائل العملية لنجاح المشروع الثقافي, لأنه و كما يري شاهد القرن أن عالم الثقافة إذا حقق الترابط الوظيفي بين عناصره فإنه سوف يحقق لنا في سلوك المسلم تغييراً و ثورة نفسية على جميع ملامح الضعف الذي أصاب إنسان ما بعد الموحدين و يتفاعل مع جميع الصعوبات التي تواجه في هذه الحياة.

و لكن هذا ما يأمله شاهد القرن و يتمناه, إلاّ أن مالك بن نبي يتطرق في مختلف كتاباته لأهم السمات المرضية المنتشرة في الثقافة العربية الإسلامية الراهنة ، و يعرض أهم الانعكاسات السلبية على سلوك الفرد وعلى نظام الحياة في المجتمع, المترتبة في تخلخل العالم الثقافي.

و إن من بين السمات الثقافة الإسلامية المعاصرة التي ذكرها ابن نبي, في مشروعه الحضاري هي:

أولا: اللفظية

هي ميزة تدل على استخدام تلك الألفاظ الرنانة و على الثرثرة و في الحديث, و ذلك على حساب الكلمة المعبرة عن الفكرة, و عندما نقول الفكر تعني دائمًا العمل و السلوك, و كأن ابن نبي دائماً يركز على أهمية التطبيق و الترجمة العملية أكثر من اللغوية و الأدبية.

هذه الظاهرة المرضية هي السمة التي يراها مالك بن نبي تطبع ثقافة مجتمع ما بعد الموحدين اليوم لدرجة أفرغت معها الكلمات من مضامينها و صارت اللغة أداة وهمية, في حين أن الثقافة الغربية اليوم تقوم على اللغة كأداة فعلية لتواصل و لترابط, إذا أصبحت أحكام الإنسان على الأشياء أحكام سطحية أضعفت قدرته عل تقدير التصحيح للأمور[1].

[1] محمد بغداد باي,التربية و الحضارة, عالم الأفكار,ط2, 2007, الجزائر, ص 94.

و في هذا الصدد يقول مالك بن نبي : << **و الغرام بالكلمات أخطر من الغرام بالمعدن أو الرخام أو الحجر, فهو يؤدي أولا و قبل كل شيء إلى أن يفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح, و هو أمر ضروري لكل جهد ايجابي من أجل البناء** >>[1].

و يورد مالك بن نبي في هذا الصّدد أمثلة متعددة فعلى سبيل المثال في الصّعيد الصحافي نجد أن الصحافة تعاني في تمجيد القادة و الزعماء بما يفوق طبيعة البشر ، بأن نطلق العديد من المواصفات كالزعيم و المجاهد و الجليل, و إن هذه السمة للإشارة هي موجودة حتى في ثقافاتنا اليوم و أصبحت مرضا خطراً تتسم به القنوات الإعلامية اليوم.

أمّا على مستوى المؤسسات التعليمية فلطالما طغى جانب الحقائق النظرية المكتسبة من الكتب على الجانب التطبيقي وهذا حتى في المواد الطبيعية المتعلقة بالتجريب المتوفرة أدواتها, كدراسة تراكيب الأدوية مثلا : لاحظ بن نبي بأن المحاضر كان يجهد نفسه في وصفه إحدى النباتات من الكتب ولم يُكلف نفسه عناء قطف النبتة الموجودة خلف النافذة ليقدم صورة حيّة عن الموضوع الذي هو صدد شرحه لطلابه ، وهذا هو حال مدارسنا اليوم تفتقد إلى دراسة فاعلية تحول المفهوم إلى السلوك.

و فما يخص الدين فإن الفقه بقي في مواضع بعيدة عن الجانب الواقعي ، يقول ابن نبي : ((**وفي هذه المرحلة أيضاً لا يهتم أحد بالمشكلات الواقعية, كما كان يفعل أئمة الفقه الإسلامي, بل يكون الاهتمام منصباً على مشكلات خيالية على ما كان عليه فقهاء عصر الانحطاط, حيث لم يعودوا يكبون على المشكلات التي يثيرها نمو المجتمع بل على حالات <<خيالية محضة>> كالبحث في جنس الملائكة أو كالتوضؤ من وطء البهيمة**)) [2], وهذه هي اليوم هي الثقافة السائدة لإنسان المجتمع الثالث التي استفحلت فيه هذه الأمراض بحيث نجد أن هذه الأفواه << **تلقن الناس مفاهيم و معايير دون أن تتحول مدلولاتها إلى أنماط سلوكية** >> .

ثانيا: الفخر و المديح

تعتبر أيضا هذا نوع من الأمراض الذي أصاب الثقافة الإسلامية نظراً لتحطم و انفصال الفكر والضمير, بحيث تتخذ هذا المرض كآلية دفاعية, يحركها مركب النقص الذي يعيشه إنسان ما بعد الموحدين حيث يقول :((**فحين**

[1] مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي,ص58.

[2] مالك بن نبي : ميلاد المجتمع,ص44.

اتجهت الثقافة إلى امتداح الماضي أصبحت أثرية, لا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام بل ينتكس إلى الوراء و كان هذا الاتجاه الناكص المسرف سببًا في انقطاع التعليم كله بطابع دارس لا يتفق و مقتضيات الحاضر و المستقبل, و بذلك أصيبت الأفكار بظاهرة التشبث بالماضي, كأنما قد أصبحت متنفسًا له)) [1]. بحيث أصبح هذا المرض يعاني منه النخبة المثقفة بحيث هناك من بقي يمدح الماضي و يبكي عليه في حين أبعد طرحه العلمي في حل مشاكل الناس ، و استدراك الحقائق و اكتشاف مواطن المرض و الخلل و هذا هو دور المثقف في هذا الزمن الذي انطوى الكل عن الداء و المرض و بقوا في غيبوبة أفكارهم.

و ما يدل عن الشلل الفكري قولنا **"إننا كاملون"** فهذا استنتاج قياسي نظري و مفهوم مجرد نمدح به هذا الدين نحن اليوم بحاجة إلى سؤال كيف نطبق و نفعل المفاهيم الكاملة في الدين الإسلامي بما يخدم حال الفرد و الأمة؟ فالحقيقة التي نحتاجها هي العملية التي تصبح حقيقة ذو فاعلية و مؤثرة في المجتمع.

ثالثا: الجدل و التبرير

قبل أن أعرف هذه السّمة أقول أن هذه السمة التي ذكرها بن نبي في طرحه الحضاري كلها تسقط اليوم على ثقافتنا الرّاهنة بالرغم من أن فكر بن نبي هو في القرن العشرين , هذا يعني بأننا في حاجة إلى ضخ دماء جديدة إلى عالم ثقافتنا في ضوء المشكلات الراهنة, و الجدل هو كثرة الكلام و هي نزعة سفسطائية لا تقود إلى حَلْ نتائج جديدة فهي كلام فارغ بحيث لا يقود هذا الكلام إلى نهضة المجتمع لأننا و نحن في هذا الزمن لسنا بحاجة إلى هذا النوع من الجدل: << **إن اللحظة تفرض أن نسد أذننا و خصوصاً أنوفنا حتى لا نشم رائحة هذا النفاق, يجب أن نفرض الصمت و التأمل و العمل لأنه ليس لدينا من الوقت لِنسْمِع ثرثرة الآخرين و خصوصاً ثرثرتنا . في الحقيقة إذا كان الصمت من ذهب قبل المأسَاة فأنه اليوم من الذهب المصّفى** >>[2] لأنه هذا ما وقع فيه الكثير من يرون أنفسهم أنّهم مثقفون كثرة الكلام و التبرير بحجج و براهين وهي لا تغبر من الواقع الحالي بل إنني أجزم بأن ما وقع اليوم للدول العربية من خرابٍ و دمارٍ هو من كثرة الجدال و الكلام و التبرير!!! وَيعتبر بن نبي أن هذه الأساليب الإصلاحية التي تنتهجها الدعاة هي أساليب دفاعية كما فعل **"جمال الدين الأفغاني" و "أحمد رضا" و "الكواكبي"** بحيث نجد أن هذه المناهج هي فعلاً مناهج تبرر أن الإسلام هو دين الحق.

---

[1] مالك بن نبي :وجهة العالم الإسلامي ,ص 60.

[2] مالك بن نبي :بين الرشاد و التية, دار الفكر, دمشق,ط1, 1978,ص111.

في حين أننا نحتاج إلى الشروط الواقعية و الأساسية التي تحقق مشروع نهضوي ثقافي فعلي و يؤكد على حرب << **للمثقفين و المنظرين العرب من دعاة الإصلاح و التغيير سواء منهم ذو المرجعية الإسلامية الفكرية القديمة من الأصوليين و السلفيين أو ذو المرجعية الحديثة من العلمانيين و الديمقراطيين الليبراليين أو الماركسيين إذ أن كل منه يحاول تحقيق مشاريعه بواسطة الكلام و الخيال أي بطريقة سحرية مثيولوجية** >>[1] . و هذا أيضا ما يفعله حتى دعاة الديمقراطية في الوطن العربي أنهم ادخلوا المجتمعات في حالة الفوضى و استعملوا اللغة للتعويض عن الحل وهذا ما فعله أنصار الربيع العربي الذين سخروا أنفسهم بلغتهم إلى هدم هذه الأوطان , و هذه في القيم السائدة جدال وكلام في غياب الفعالية و صدق هذه الحلول.

رابعا: الذرية

و هي أيضا نوع آخر أصاب إنسان ما بعد الموحدين بحيث هي تعني عدم القدرة على إدْرَاَك الأشياء و الأحداث التي تجري في هذا الواقع في صورة كلية شاملة تربط بين جميع الصلات بعيداً عن النظرة الجزئية و الانفصالية ، الأمر الذي يصبح معه إصدار أي حكم صحيح على الواقع مستحيلاً إذ تحول الذرية عندئذ بين العقل و تتبع الفكرة و حركتها المنطقية.

بحيث يرى بن نبي أن هذه السِّمة هي التي تميز الواقع الثقافي الراهن حيث أصبح عقل المسلم اليوم لا يرى المشاكل إلاّ التي يستطيع لمسها فقط << **إن طريقتنا في الفهم تعد لمسِية بدل أن تكون عقلية** >>[2], و هذا مَا يجعلنا نبتعد عن الهدف و الوسائل و الغاياتِ.

خامسا: التعالم

و هو المصطلح الذي أطلقه على النخبة في المجتمع العربي والإسلامي, و أعتبرها هي من أهم السمات التي تميزت بها الثقافة في الوطن العربي بحيث أداء العلم و المعرفة, ويرجع شاهد القرن إلى ظهور هذه الفئة إلى الثقافة العربية حيث يقول: << **إن ثقافتنا لم تنتج سوى حرفيين مُنبثين في صفوف شعب أمي** >> , و هؤلاء المتعالمون لم يعيشوا هُموم أمتهم بل جعلوا العلم طرق من أجل الظهور في أماكن بارزة بل و جعلوه آلة للعيش .

---

(1) علي حرب:نقد النص , المركز الثقافي العربي, بيروت, ط1, 1993, ص163.

(2) مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرَة, دار الفكر, دمشق, سوريا1988, ط1, ص10.

و من هذه المعاينة يؤكد شاهد القرن أن هذا المرض هو مرض عضال أكثر خطراً من مرض الجهل والأمية, لأن عقل المريض لم يتعلم العلم من أجل أن يجعله ضميراً فعالاً بل آلة للعيش و سلما نصعد به إلى مناصب البرلمان و إن كلام هذا المتعالم هي تهتهة تتمثل فيها شيخوخة و داء عضال فهو الصبي المزمن[1] .

بهذا نعتبر أن مشكلة الثقافة يجب عليها أن تزيل هذا المرض الذي أفشى لنا قيم عكرت الجو و حالت بين و بين طرق النهضة لذالك يدعونا شاهد القرن إلى مجتمع بكافة أطيافه من الأعلى إلى الأسفل لبناء ثقافته تربوية في ظل مسألة القيم التي تدعونا دائما إلى تربية الأنظمة السياسية و أخلقة العمل الثقافي.

سادسا: الاضطراب الفكري و السلوكي

يعطي ابن نبي ميزةً أخرى في ثقافة إنسان العالم الثالث وهي كنتيجة للتقاطب المزدوج الذي تترجمه العقلية المزدوجة و الاستجابات السُلوكية المتناقضة لدى الفرد.

بحيث نجده يرجع هذا الاضطراب السُلوكي إلى اتصال المسلم المعاصر بالحضارة الغربية المعاصرة فهو أما متشبث بترابه القديم كُلياً و اعتبارهِ الوسيلة الوحيدة للخلاصْ, وإمّا منسلخ عنه و متعلق بالثقافة الغربية و ما أنتجت , و اتخاذها مقياساً لا بديل عنه للتقدم[2] .

وهذا الاضطراب هو دافع الشباب البوم إلى التطرف الفكري وبسهولة امتصاصهم لاتجاهات مختلفة و إيديولوجية لغياب الوعي, بحيث نجد أن معظم الشباب اليوم هو واقع في مأزق فكري للمتاهات الفكرية التي يعيشها الشباب المسلم فأحدهم سلفي متشدد و البعض الآخر جهادي إن دلّ هذا إنما يدل عن عدم و جود تناغم ثقافي في المجتمع و غياب عوالم الثقافة و إنفصالها مما أدى إلى بروز قيم أخلاقية مرضية سببها اضطراب فكري و سُلوكي ناجم عن ثقافة هزيلة لعقل إنسان ما بعد الموحدين.

سابعا: القابلية للاستعمار

إن إنكفاف القيم و بروز الشيئية بمعنى طغيان الشيء على عالم الأفكار , واختلاط النسيج الثقافي , و علل الشبكات الاجتماعية, و الذرية مع غياب فاعلية المثقف الواعي كل هذه السمات أدّى إلى بروز سلبيات متوارثة جيل بعد جيل بحيث جعلت هذه السمات تعشش في أحضان المجتمع , هذه هي الوضعية التي آل إليها مجتمع ما

---

[1] مالك بن نبي: شروط النهضة, ص128.

[2] مالك بن نبي: فكرة كومنولث إسلامي, مكتبة عمار, القاهرة,ط2 ,1971, ص41.42.

بعد الموحدين ، هذه هي السلبيات أطلق عليها مالك بن نبي بالقابلية للاستعمار , هذه هي سمة و مصطلح بارز اشتهر به شاهد القرن لِوصْفه إلى حالة إنسان العالم الثالث فهو مصطلح تاريخي يعبر عن كل معاني السلبية و كل حالات النفسية و الذهنية لإنسان ما بعد الموحدين مشحونة بالعقد التي تحول دون التطور.

و يؤكد علماء التاريخ و المهتمون بالشأن التاريخي أن أي حضارة لا تنهار من الخارج بل من الداخل فهي تتآكل هي نفسها و تموت من الداخل لكي يُسهل على الاستعمار دخولها.

و نفس الفكرة يؤكد "**أرنولد توينبي**" أن العدو الخارجي لابد له أن يرتكب أشد المكر في تسديد الضربة القاضية لشعب يقدم على انجاز محقق[1] .

فالقابلية للاستعمار حددت السمات العامة للسلوكيات و للثقافة و للأفكار في المجتمع فهي التي حددت وضعية الشعب لاستقبال الاستعمار فهذه الصفات جعلت الشعوب غنيمة سهلة للاستعمار ولكن ما مدى بقاء هذه القابلية للاستعمار اليوم في حين ان الاستعمار قد خرج من البلاد المستعمرَة ؟.

إننا أثناء الإجابة عن هذا السؤال نجد أنفسنا أننا بحاجة إلى المرحلة التاريخية , بحيث نجد أن المستقرئ لحركة الاستعمار يجد أن الاستعمار قد أدرك جيداً الخصائص النفسية و الاجتماعية و العقلية التي ميزت مجتمعات العالم الثالث و أدرك جيداً حتى شعور هذه الشعوب نحو دينها و قضاياها المصيرية ، فحين نجد أن المجتمعات قد تخلصت من الاستعمار إلاّ أن روح الاستعمار لم تبرح عقول أفرادهم و ثقافتهم لأن البعض قد يجد أن مالك بن نبي قد كان مخطئ في وصفه مثلاً للشعب الجزائري بأنه قابل للاستعمار وهو بقي يناضل من أجل تحرير بلده ولكن حسب مالك بن نبي ليس وجود عسكري بل هو وجود نفسي و سيكولوجي في أذهاننا فإذا أخرجناه من نفوسنا فانه يخرج لا محالة من أرضنا, لذالك نجد أن الاستعمار اليوم هو في شكل جديد مقنع لكي يتحكم في شعوب العالم سياسياً واقتصادياً وثقافياً.

بحيث تعتبر الدراسات أن هذا المفهوم مازال قائماً إلى حد اليوم في صورة "**القابلية للتبعية**"[2], التبعية للغرب في كل شيء, فهو مثلا يريد منا بطالة لكي يحصل منها يد عاملة يستعملها في ما يحب هو.

ويريد منا إنحطاَطاً في الأخلاق لكي تشيع الرذيلة.

ويريد منا ساسةً والسياسة لتفريق الأمة و تقسيم المجتمع.

---

[1] مالك بن نبي: القضايا الكبرى, دار الوعي, الجزائر,ط1, 2013 ,ص32.

[2] سلوى بن جديد: مفهوم التبعية عند مالك بن نبي,رسالة ماجستير,غبر مشورة جامعة الجزائر,السنة الجامعية1994-1995.

و يريد منا مثقفاً يركن لكل خطاب, يتباهى بمعرفته ينقد فقط و لا يعطي البديل و الحل .

بحيث أصبح يتصرف هو في كل مواقفنا الوطنية و القومية وما التحالف ضد النظام الليبي إلا دليل على ذالك و هذا ما تعيشه اليوم دول العالم الثالث من فوضى سياسية وأخلاقية و اقتصادية و أزمة قيم ، لأننا لم نخرج الاستعمار من ذاتنا فدرسنا هو ودمّرنا فهل نعي؟

إذاً إن الاستعمار بقى معششا في ذواتنا نظراً لأن الصفات السلبية مازالت تعصف بهذا الإنسان الذي للأسف أنهكته كل هذه الأمراض خاصة الثقافية فأصبحنا نقولها و للأسف نعيش تحت كلمات من ساسة لدول غربية لعلها تفرج همومنا وتخرجنا من واقعنا الأليم في حين نجد أن بعض المثقفين من مازال ينتقد الأحاديث للبخاري أقول عن هذا أن الاستعمار قد درس نفسية المثقف فجعله يعيش هم أحاديث البخاري و لم يغير واقعه .

نجد أيضا بعض الأحزاب السياسية هي اليوم تصارع على كراسي السلطة تنتقد الرئيس و سياسة وهم لا يدرون بأن هذه الأعمال هي لغة مالك بن نبي بوليتيك أكثر منها عمل سياسي منظم و هكذا يتراجع المجتمع إلى الخلف و من ثم ينتكس وأي انتكاسة و نحن نعيش ثقافة لهدم الوطن لا لبنائه!.

ولكن إن الناظر إلى مفهوم القابلية للاستعمار الذي وصفه شاهد القرن للعالم الثالث نجد فيه أن مالك بن نبي لم يضع هذا المفهوم في سياقه التاريخي فلوا نقف مثلا في تاريخ الماضي نجد أن الشعوب المستعمرة رفضت الاستعمار رفضاً مطلقاً و دليلنا على ذالك الثورات العسكرية الذي قام بها مثلا الشعب الجزائري ردّاً على الاستعمار فنجد أن هذه الصفة يجب أن ترفع عن هذا الشعب الذي استعمل القوة النفسية و العسكرية التي أدت به إلى نيل استقلال هذا يقودنا إلى أن مالك بن نبي يبدوا أنه غير موضوعي في وصفه للشعوب أنها قابلة للاستعمار خاصة الشعوب التي قاومت الاحتلال بشتى أنواعه و لقد تجاهل مالك بن نبي فكرة هامة و هي **"نظرية المؤامرة"**, و ما يحدث في الدول العربية من ثورات و تدخل الغرب في هذا الشأن إلاّ دلالة على ذالك و من أراد أن يفهم الأمر جيداً عليه بقراءة كتاب **"برتوكولات حكماء صهيون "** و ليدرس التاريخ جيداً حتى يتبين له حجم حقد الغرب على العرب.

و لكن بعد تحليلنا لعنصر القابلية للاستعمار الذي جمع كل السلبيات و السمات الثقافية المعاصرة التي أنجبت قيم وأفكار قاتلة و للإشارة فقط أن هناك سمات ثقافية أخرى و لكن ركزنا على بعض منها لأهميتها, و لأننا لا نريد أن نرى العجب من هذه الثقافة!!

هذه الثقافة التي تحمل العجب في حملها لهذا الأمراض و السلبيات التي هي سمة ملازمة للإنسان المسلم و لثقافته و لكن هل يمكن إزالة هذه السمات المرضية لبناء ثقافة إسلامية معاصرة تقف أمام كل المعارك الحالية ؟

المبحث الثالث :الحلول العلاجية لبناء الثقافة الإسلامية المعاصرة

في ظل السمات المرضية التي تميزت به الثقافة الإسلامية المعاصرة و انعكاساتها على مسألة القيم بحيث خلقت لنا أزمة قيم حقيقة في ضمير الإنسان المسلم بغياب الرّوح الأخلاقية و هدم لشبكة العلاقات الاجتماعية إلاّ أن المفكر شاهد القرن لم يقف مكتوف الأيدي أمام هذه المعوقات بل إنّه اقترح مجموعة من الحلول للخروج من هذه الآفات التي خلقت لنا سُلوك جعلنا نبقى في ظلمات التخلف و التدهور و من هذه الحلول نبدأ :

أولا: إعادة تشكيل شبكة العلاقات الاجتماعية

لا وجود في مجتمع لعالم الأفكار و لا لعالم الأشياء إلا بوجود عالم الأشخاص, فعالم الأشخاص الذي نعبر عنه شبكة العلاقات الاجتماعية في وسط ثقافي ما هو الذي بوجود هذين العاملين و يطوّرهما , كما أنّه يمثل القاعدة الصلبة التي تنطلق منها كل عمل تاريخي مشترك , و على قدر ما تكون هذه الشبكة متصلة بمبرراتها الرُوحية تكون تماسك خيوطها لان العلاقة الاجتماعية هي في ظل العلاقات الروحية و يكون مردودها النشاط المشترك مرتفعا[1] .

و من أجل إعادة بناء هذا العالم يركز بن نبي على عملية **تكييف** الإنسان المسلم اجتماعيا, بحيث تصبح كل تصرفاته و انعكاساته غير منافية للنزعة الاجتماعية, لأنه يرى أن عالم الثقافة قد يعيش انفصالا بين عوالمه و هذا ما هو موجود حالياً فإننا نعيش ثقافة بعيدة كل البعد عن النزعة الاجتماعية ، هذه النزعة التي تعمل على إحياء **سلطة الضمير** لتوجيه غايات الإنسان إلى تبليغ الرسالة العالمية, إذ أنّها تساهم في **تقديم النوع الإنساني**, يضهر هنا في حديث مالك بن نبي أنه ركز على شبكة العلاقات الإجتماعية لكننا اليوم أمام معطيات جديدة تتمثل في تطور وسائل الإعلام و الإتصال و التي فتت شبكة العلاقات الإجتماعية خاصة منها العالم الإفتراضي الذي أصبح و هم يعيش فيه الفرد المسلم متجاهلاً عالمه الحقيقي, كما أنه العالم الإفتراضي تسبب في نفاذ الأفكار الهدامة إلينا فنحن مطالبون بإعادة هيكلة الفرد مع هذه المعطيات الجديدة.

ثانيا: تقديم الواجب على الحق

إن الثقافة التي نعيشها اليوم هي معظمها يغلب عليها المطالبة بالحقوق أكثر من الواجبات و إن تغيير الواقع يعني تغيير الثقافة حيث يقول:<< **إن التغيير بصورة عملية في الواقع الذي يتمثل في النموذج الاجتماعي الآفروآسيوي, و في المنظر الإنساني من طنجة إلى جاكرتا , و لكن كل واقع اجتماعي في جذوره هو قيمة**

[1] مالك بن نبي: ميلاد المجتمع ,ص27.

ثقافية محققة في واقع الإنسان>>[1] ,لأنه أي تفكير حسب بن نبي علينا أن نعود إلى جذوره الأولى للقضاء عليه فمجتمعاتنا تعيش تحت أزمة البحث عن الحقوق, إلاّ أن مالك بن نبي يعتبر أن الواجب من ميزات الإنسان المتحضر الذي يرقى فوق درجة نوعه[2], و يتضمن الواجب فكرتي : **التكييف الفردي و المسؤولية الجماعية**[3].

و الواجب عند شاهد القرن لا يفهم بمعزل عن الحق, بحيث نشاهد الإنسان المعاصر اليوم يميل إلى المطالبة بالحقوق ، وهذا راجع إلى الحالة النفسية التي تميزه بحيث تجعل منه فرداً يفتقد العمل المشترك بحيث يصبح كل فرد يعمل فقط لحسابه الخاص, << **أمّا المجتمع الذي يرتفع و ينمو فإن ذالك يعني أن لديه رصيداً من الواجبات فائضاً على الحقوق**>>[4] .

لذا فهو يؤكد في مشروعه الحضاري على ثقافة الواجب من أجل تنمية الشعور بالمسؤولية بحيث تحقق هذا مصلحة العامة التي ترجع هذا العالم الثقافي وفق ثقافة يرتكز على روح الواجبات.

ثالثا: إعادة المكانة للوقت و التُراب

الوقت و التراب من بين العناصر التي تدخل في تركيب الحضارة , فمتى كان نشاط الإنسان هَادفاً و فعالاً كان لهذين العنصرين قيمته تحددها, بحيث اعتبر بن نبي الثقافة التي يجب أن تكون عليها ثقافة محور طنجة إلى جاكرتا أن تكون ثقافة تهتم بالوقت بحيث يرى : << **إن الثرثرة تكثر كلما قل النشاط و الحركة, إذ حينما يسود الكلام يبطئ الحركة**>>[5] ,من اجل عدم إضاعة الوقت.

لهذا حرص بن نبي إلى إعادة اعتبار لهذين العاملين و ذالك عن طريق التربية التي تسعى إلى إشعار الفرد و المجتمع معاً بقيمتها الاجتماعية و النفسية المتمثلين في بيان أهمية إصلاح التراب و التخطيط له.

يعطي بن نبي حلا لتثبيت فكرة الزمن بحيث إننا إذا أراد الفرد ان يثبت فكرة الزمن أن يخصص الفرد عملاً في نصف ساعة من كل يوم من اجل أداء واجب معين تقوم به في ظل المجتمع بحيث نجد أنه لو أن كل إنسان

---

[1] مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية, ص141-142.

[2] علي القريشي: التغير الإجتماعي عند مالك بن نبي, الزهراء للإعلام العربي, القاهرة,ط1, 1989 ,ص238.

[3] إبراهيم عاص: حوار مالك بن نبي, مركز التربية الإسلامية, دار لسا, ط1 , دون تاريخ ,ص27.

[4] مالك بن نبي: تأملات ,ص31.

[5] مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية, 2013,ص83.

استغل من وقته لكان الحصاد منتوجًا حضاريًا يَدويًا و عقليًا و روحيًا من أجل أن يطيع على أسلوب الحياة[1]فنجده في سلوك المجتمع و سلوك يطمع به الفرد فتكوّن بناء ثقافة تهتم بالوقت و تعطى التراب فاعلية و حركية للخروج من حالة السكون.

رابعا: التخلص من القابلية للاستعمار

هذه السمة الخطيرة التي يتميز بها الإنسان ما بعد الموحدين هذه القابلية في طريقة الإنتاج و الاستهلاك ولأن هذه السمة لها أهدافاً تخدم الآخر حيث يقول بن نبي:<< **تبعية الاستهلاك هي أن يستهلك ما ينتجون الغرب و تبعية الإنتاج أن ننتج على شاكلة ما ينتجون دون مراعاة لاحتياجاتك الخاصة و ظروفك المحلية**>>[2] وهذه السمة في الجانب الاقتصادي بحيث نجد أن العالم الثالث مولع بالغالب بحيث نجد المغلوب على أمره يقلد في مأكله و مشربه و أنماط تفكيره, بحيث يعتبر مالك بن نبي أن التبعية الثقافية هي أخطر من التبعية الاقتصادية لأن التبعية الاقتصادية لا نستطيع الخروج منها إلا بثقافة واعية مثلما فعلت الصين في ثورتها مع روسيا وهكذا فعلت ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية إرادة قوية و استخدام كافة الإرادات و الإمكانات لتحقيق الإقلاع الحضاري[3] .

و لا يمكن التخلص من التبعية الثقافية إلاّ عن طريق وعي الذات لمرجعيات الفكرية والعقائدية, و هكذا فان طريق الاستقلالية الحقة و النهوض تبدأ بالعمل على العمل البناء بالأفكار الفعالة و العمل وفق التجديد و روح المثابرة.

خامسا: تصفية الثقافة من جملة الآفات

إن اللفظية و التبريرية هي و الجدلية, و الرومانسية و التعالم و الذرية هي من جملة من الخصائص التي تميزت بها الثقافة الإسلامية المعاصرة ، بحيث أصبحت تمتاز أسلوب الحياة و تطبع سُلوك الأفراد في المجتمع الإسلامي الذي فقد مبررات تحضره, و على الرغم من أن هذه السلبيات تعد نتيجة تردّي الوقع العام للمجتمع و ليست سببًا فيه.

بحيث يؤكد مالك بن نبي أنه من أجل تكوين عالم ثقافي يصر على ضرورة تصفية عاداتنا و تقاليدنا من هذه المميزات التي انطبعت بها ثقافتنا فنحن نحتاج اليوم إلى ثقافة تحمل صفات تملك من الفعالية و القدرة على تجاوز جميع المشكلات الراهنة و عدم الانبهار بالألفاظ و محاولة السباق على تأسيس مصطلح و إبتكار مفهوم, وهذا ما

---

(1) محمد بغدادي: التربة والحضارة,ص139.

(2) إبراهيم عاص: حوار مالك بن نبي, ص24.

(3) نفسه: ص24.

بقيت به الفلسفة العربية في حين بقي الفرد يعاني من ويلات الاستعمار , في حين نجد أن الثقافة الغربية حملت جملة واحدة "**أنا أفكر إذن أنا موجود**" فقلب الوجود فعلاً و بقينا نحن نتفلسف حول مواضيع لا تسمن و لا تغني من جوع منها : هل العقل العربي موجود؟ هل نحتاج إلى أصالة أم معاصرة؟....و هكذا من المواضيع اللفظية البعيدة عن الواقع المعاش. أمّا عن التبريرية فان الثقافة اليوم هي تحمل جملة من أدلة للتبرير فقط على أمور في حين أن جميع المناهج التي يدعوا إلى التغيير هي دفاعية و جدالية أكثر منها تحمل في طياتها الأدلة فقط, في حين أن المسلم اليوم يحتاج إلى منهج تنبثق فيه الفكرة الدينية من روح التجريد إلى ضرورة العمل السلوكي الواقعي.

و إذاً قلنا الثقافة تمتاز بأن النخبة التي يحمل لوائها هي ثقافة سطحية غير متغلغلة في الأغوار لكون أن مثقفيها هم حملة لواء الكلمة فقط و إن كانت الكلمة لكان الحال أفضل, بل إنهم يعملون مصالحهم الخاصّة و جعلوا من العلم فقط شعارًا لذالك كان سهلاً على المعسكر الغربي بأن يدخل بلداننا بأيدينا و أيدي مثقفينا فهل ندرك الأمر؟.

لذالك على الثقافة أن تتخلص من كونها معرفة إلى كونها قيمة أخلاقية يحي بها المثقف و يحقق بها دوره الفعال في جانب العقيدة بحيث يقول << **أن المشكلة هي ليست في أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها و إنما المهم أن نرد لهذه العقيدة فاعليتها وإشعاعها الاجتماعي, ليس المطلوب منا أن نبرهن للمسلم على وجود الله بل مطلوب منا أن نشعره بوجوده و نملأ نفسه باعتباره مصدرا للطا**قة >>[1] وهذا هو دور المسلم في ضوء أزمة القيم لان المسلم اليوم هو يعيش فراغ رُوحي لطغيان الجانب المادي على حياتنا الواقعية و غياب الفكرة الدينية التي تضفي على المجتمع تماسكه و ترابطه فالإنسان اليوم يحتاج إلى ما من يفعل هذه العقيدة الأخلاقية لكي يخلق عالم ثقافي متناغم بين عوالم الثقافة عالم الأشخاص و عالم الأفكار و عالم الأشياء.

بحيث يؤكد شاهد القرن على أهمية الدين سواء في الجانب الفردي و الشخصي, وفي تنظيم الطاقات حيث يقول: << **يدخل الدين مُباشرة في الشخصية التي تكون الأنا الواعية في الفرد و في تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة هذه الأنا لدى الفرد و كان النشاط لدى الفرد سببًا في وجود النشاط المشترك خلال التاريخ** >>[2], وبهذا يؤكد على ضرورة تفعيل الثقافة للدين كونه, مفعلاً اجتماعيا لجميع العلاقات الإنسانية.

و بهذا عندما تكون الثقافة ذو صبغة تحمل فاعلية فإنها سوف تنعش المجتمع بقيم جديدة على غرار هذه القيم التي فقدت الفاعلية للإنسان .

---

[1] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ,ص54.

[2] مالك بن نبي: ميلاد المجتمع ,ص72.

سادسا: التوجيه العملي و الإقتصادي

يؤكد شاهد القرن أنه لا يمكن أن ينجح المشروع الثقافي إلا من خلال توجيه العمل و رأس المال.

بحيث يعتبر << **العمل وحده هو الذي يخط مصير الأشياء في الإطار الاجتماعي** >>[1], و هذا كنشاط يتولد من تفاعل الإنسان مع الزمن و التراب ويربط بدوافع هذا الإنسان و أهدافه لهذا كان العمل عند مالك بن نبي يمثل حلقات الإنسان.و يتضمن مفهوم العمل عند مالك بن نبي معنيين: معنى تربوي و معنى كَسْبيا و يمكن المعنى التربوي في بيان أهمية في مجتمع لا يزال بداية في التكوين, و معنى الكسبي يعنى أن لكل جهد يستحق أجراً و يترجم هذا المدلول أن فكرة الواجب تساوي الحق [2].

و إن توجيه العمل يحقق لنا اللحمة الاجتماعية بين أفراد المجتمع حيث يقول مالك بن نبي : << **إن توجه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي بعامة تعني سَير الجهود الجماعية في اتجاه وَاحِد** >>[3], وكل طوائف المجتمع تحقق لنا جهوداً فالراعي و الفلاح , و صاحب الحرفة و التاجر و الطالب و المثقف و البناء و العالم كل هؤلاء يحققون لنا لبنة جديدة في طريق النهضة.

و كل عمل ــمهما كان نوعهــ يحقق لنا تطوراً فغرس شجرة و إزالة الأذى عن الطريق و نظافة شوارعنا و ملء أوقات فراغنا في مساعدة الآخرين عمل وهكذا و لكن يتم هذا إلاّ من خلال التوجيه المنطقي للعمل كشرط عام أولاً ثم كوسيلة عيش بعد ذالك إعادة الاعتبار ليد الإنسان في عالم الأشياء إذ أن له تأثيراً على فكره و بالنتيجة على محيطه.

و بهذا نجد أنه عندما تتحرك اليد فإنها تصنع المعجزات و متى ركدت اليد و نامت تنام معها الأعمال وبذالك تحيا ثقافة الكسل و الخمول كما هو منتشر اليوم بثقافاتنا, و أنه حسب بن نبي أنه متى كان توجيهاً للعمل و للثقافة متى يعيش الإنسان في جو من الكرامة, لأن اليوم ــكما قلنا سابقاــ متى وجّهنا أفكارنا و أعمالنا متى حققنا عالم ثقافي متناغم يقف أمام المشكلات الرّاهنة.

---

[1] مالك بن نبي: شروط النهظة ,ص162.

[2] محمد بغداد باي: التربية والحضارة,ص131,132

[3] مالك بن نبي: شروط النهضة ,ص163.

و يفرق مالك بن نبي بين مفهومي الثروة و رأس المال حيث نجد أن الكثير من الناس اليوم يخلط بين هذين المفهومين, فمفهوم الثروة مُرتبط بطبيعة المال الذي هو عند الإنسان و هو المال الساكن, بينما يربط مفهوم رأس المال بطبيعة المال المتحرك في المجتمع المتقدم, وهو يمثل قوة ممولة فيه[1].

وَ إذ تعرفنا الثروة في المجتمعات المتخلفة على من يكسبها فإننا في الدول المتقدمة لا نتعرف على أصحاب رؤوس الأموال بقدر ما نتعرف على أصحاب مصانع و العقارات و مؤسسات اقتصادية, و بذالك ينتقل رؤوس الأموال لكي تشكل لنا حركة اقتصادية في المجتمع مما يؤدي على القضاء على كافة المشاكل الاجتماعية, فمالك بن نبي أقترح رؤية اقتصادية فعالة يتمثل في التخطيط الذي تشرف عليه الدولة من أجل بناء حياة اقتصادية ناجحة تقضي على كافة الأموال المحتكرة في أيدٍي قليلة لكي لا تخلق الطبقية في المجتمع, بحيث نجد اليوم أن هناك فئة من تتحكم في رؤوس الأموال بحيث نجد أن الشعب البسيط يبحث عن لقمة العيش لكي يحقق بها بقائه في حين ينعم البعض بأموالهم مِمَا يقضى على روح التعاون و القيم الإنسانية و هذا هو حال الأمة اليوم يقول: << **فالقضية إنما هي قضية منهاج يحدد لنا تخطيطا مناسباً تنبني عليه حياتنا الاقتصادية, و لا يكون فيه التركيز رؤوس الأموال في أيدي فئة قليلة, تشغل السَواد الأكبر من الشعب, بل يجب أن يتوفر فيه إسهام الشعب مهما كان فقيراً و بذالك يتم التعادل بين طبقات المجتمع و تنسجم مصلحة الجماعة مع مصلحة الفرد**>>[2].

و يؤكد و يلح مالك بن نبي على ضرورة تكوين مجلس من أجل عملية التوجيه الثروة لكي يحقق لنا رؤوس أموال خدمة الأهداف الاقتصادية, لأن ما نلاحظه اليوم من وقوع بلدان في مشاكل اقتصادية هو ناتج بطبيعة الحال من عدم توجيه الثورة في خدمة مصالح الأفراد و هذا ما نجده على سبيل المثال في الجزائر , فالثروة متوفرة و لكن التخطيط العقلاني الرشيد لتكييف هذه الثروة غير موجود مما جعلنا يبقى في ظل التخلف و تسلطه.

و بطبيعة الحال فإن هذا التوجيه الثلاثي اليوم بين ثقافة تخلق الفعالية و تحرك الإنسان في أعماله لكي يخلق لنا جوّا من التحكم بثروتنا ورؤوس أموالنا و هذه تحقق لنا التنمية المنشودة و تخرجه من ظلمات عصر الموحدين و تخلق لنا إنسان قد حقق عالم ثقافي متناغم يتجاوز فيه المشكلات الراهنة خاصة مع طغيان القيم السلبية كطغيان المادة و ظهور الطبقية و بروز الاحتكار و إستغلال الضعفاء, فمتى وجهت الثقافة و العمل و رأس المال حقق

---

[1] مالك بن نبي: شروط النهضة ,ص169.

[2] نفسه :ص173.

الإنسان شروطه اللازمة, << **و بهذا التوجيه الذي يسير متضافراً مع توجيه الثقافة و توجيه العمل يكون الفرد قد أستكمل الشروط اللازمة لتشييد حضارة تطابق إطاره الخاص** >>[1].

إذا نستخلص بأن هذه الحلول العلاجية التي قدمها مالك بن نبي من أجل علاج الأمراض و المورثات السلبية للإنسان ما بعد الموحدين فإن هذه الأهداف كلها تهدف إلى تنبيه الوعي و شحذ الإرادة, و خلق الفعالية و إيقاظ الضمير, و تحريك الأيدي و العضلات بحيث تصل هذه الشروط الفعالية لدى إنسان ما بعد الموحدين وتصل الإنسان إلى عجلة التاريخ و جدليته الصاعدة التي لا تعرف إلاّ بالإنسان الفعال, المتحرك, العامل.

و بهذا العملية يستكمل الإنسان المسلم ما أمره خالقه بأن يكون فرداً مستخلفا في هذه الأمراض من أجل تحقيق بقائه و تحقيق مبررات و جوده, و لكن ما هي الوسائل العملية لتحقيق هذه الغاية؟

يجيب شاهد القرن: ((**هي ثلاثة عناصر اليد و القلب و العقل لأن كل الطاقات الاجتماعية تنطلق منها, فكل طاقه اجتماعية تصدرها من دوافع القلب و من مسوغات وتوجيهات العقل و من حركات الأعضاء, فكل نشاط اجتماعي مركب من هذه العناصر و الفاعلية يكون أقوى في الوسط الذي تُنتج أقوى الدوافع و أقوى التوجيهات و أنشط الحركات**)) [2], أي فكر هذا ينادي بضرورة تفعيل ثلاثة عناصر اليد و القلب و العقل من أجل بناء نشاط إنساني مُتكامل.

و هذا ما يؤكده أعمال علماء الآثار الذين أثبتوا العلاقة بين اليد و العقل : فكلما تحركت اليد وعملت حرصت العقل على الابتكار, و نضيف هنا تدخل الضمير الذي يدفع اليد كي تتحرك و توجه ابتكارات العقل فيما يفيد الإنسانية و لا يضرها و هذا الضمير يستمد مقوماته من عقيدة الفرد التي يؤمن بها[3].

فإن شاهد القرن هو يؤكد على ضرورة أن تكون أعمال الإنسان و مبتكراته وفقاً لما يقره الضمير الإنساني و أنه متى تحركت اليد و نشطت نحرك العقل و انفجر و خلق المعجزات بما يفيد الإنسانية.

و لكن المتأمل اليوم يجد أن العالم العربي و الغربي يجد فوضى في جمع الميادين السياسية و الثقافية و الاقتصادية وخاصة العالم العربي فمالك بن نبي يوجه رسالته المعرفية التي تجمع بين اليد و العقل و القلب للعالم الغربي لكي لا يخلق سلبية ، لأن المتأمل اليوم يجد أن جميع المشكلات الراهنة هي بسبب انفلات العقل من الضمير و تسلحه فقط

---

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة ,ص173.

(2) مالك بن نبي: تأملات , ص38.

(3) محمد بغداد باي : التربية والحضارة,ص141.

بما يحقق غاياته, و يبقى الإنسان المسلم يسعى لتحقق وجوده من مأكل و مشرب و ملجأ لأن هذه الرسالة المعرفية هي تصح للعالم الغربي و لكي لا نقع في الثرثرة الفلسفية يبقى المسلم اليوم أولى عمل له بأن يتخلص من جميع الأفكار الميتة و الأفكار المميتة و يخلق جو من الأفكار التي تحمل الفعالية في كل جوانبها لكي تتخلص من هذه المورثات السلبية و يخلق جو من القيم السامية التي تدعوا لبناء حضارة عالمية رسالتها التعايش و الوفاق و بالرغم من أن مالك بن نبي قد سلح جميع الشروط و العوامل من اجل القضاء على جميع الأمراض التي تعاني منها الإنسان كربطه مثلا بين السياسة و الثقافة و جعل من السياسة مهمة لتوجيه الطاقات الاجتماعية لتحقق بناء المجتمع والثقافة هي توجيه الطاقات الفردية, و التوفيق بين الثقافة و السياسة يتحقق عن طريق الفرد لأنه هو العنصر الواعي الموجه للطاقات الاجتماعية[1].

و التخلص مثلا من التقليد الأعمى للغرب و محاولة اقتحام أفكارهم في حل مشاكلنا إلاّ أنني قمت بالتركيز على الإنسان كونه هو المشكلة التي تنبع منها جميع هذه الأمراض فمتى كانت سمات الإنسان العالي الجديد قادراً على جمع بين المادة و الروح متحمل مسؤولية, حركي واعٍ فهو من طريق الحضارة .

هكذا إذاً رسم شاهد القرن عالمة الثقافي بحيث جعل فيه تناغما و انسجاما ، جمع فيه بين الفعالية كشرط لهذه الفكرة, و تخليص الإنسان من وحل المورثات السلبية و بناء اقتصاد قوي وفعال أن دل هذا إنما يدل على شمولية الخطاب الثقافي النهضوي في فكر مالك بين نبي بين الديني و السياسي و الاقتصادي من اجل بناء مُحيط يتصدى لجميع المستجدات الجديدة.

و بهذه النظرية الثقافية أشتهر مالك بن نبي في الحقل الفلسفي و عُرف بهذه النظرية كونه قد حللها من جميع الجوانب, و لكن ما مدى تحقق المشروع الثقافي لفكرة مالك بن نبي؟ بالرغم من أن مالك بن نبي قد قدم الداء و الدواء و بين المرض وأعطى الدواء فما مدى صواب هذه النظرية الثقافية؟

[1] مالك بن نبي: تأملات ,ص26.

المبحث الرابع : نقد و تقويم المشروع الثقافي لمالك بن نبي

إذا يعتبر مالك بن نبي من بين المفكرين الذين ناقشوا العديد القضايا و المشكلات التي تعاني منها الأمة الإسلامية, و كان له مشاريع جمة من أجل إخراج الإنسان العربي من هذه النكسة الحضارية التي سجلها التاريخ الإنساني فكتب في الثقافة كما رأينا و تصور عالماً ثقافياً يخضع لمعايير تربوية جادة من أجل بناء سلم ثقافي يقع في توازن مع سُلم القيم.

و لقد كان مالك بن نبي سباقاً في التأكيد على وجود طريق ثالث للنهضة التي يناشدها الإنسان العربي إلاّ أنني أقول أن الإنسان العربي يناشد اليوم مع موازنة ما قلته سابقا يتمنى العيش فقط بسلام, يحفظ بقائه ووجوده!!!

ولقد طرح قضايا التنمية بكل أبعادها و قد تميز طرح مالك بن نبي للمشكلات بطريق موضوعية ترتبط بوضعية الإنسان المتخلف و ما يلازمه من أحوال نفسية اجتماعية من جهة أخرى على مستوى التشخيص التحليلي الذي لا يتفق عند الوصف الخارجي بل لأعراض المرض , بل يسعى إلى بحث أسبابه الحقيقة.

و من جهة على مستوى المعالجة القائمة على المنهج التربوي البنائي الذي يرمي إلى إعادة تشكيل البنية الثقافية بما يجعلها أداة فعالة في إحداث التغير في الفرد و المجتمع متجاوزا شاهد القرن المنهج الوصفي الذي اتسمت به الدراسات الاجتماعية و التربوية في الوطن العربي [1].

و لقد ابتعد المشروع التربوي عن الحلول الجاهزة المستوردة من قبل الاتجاهات الليبرالية و الماركسية , و أيضا ابتعد عن الحلول التقليدية التي تقضي على روح التجديد و مواكبة التطورات الحالية ، مما يجعل المشروع الثقافي البنيوي مشروعاً مستقلاً و هذا ما قصده علي القريشي أثناء وصفه وتقييمه للمشروع الثقافي لمالك بن نبي << **إن جدة البرنامج التربوي الثقافي الذي حدده بن نبي لم يكتسب ميزته كنظرية في الإنشاء السلوكي فقط ، بل لكونه أيضاً مصمما يتناسب مع واقع متخلف هو بحاجة إلى أن توجه فيه الثقافة على نحو تربوي** >>[2].
وهذا ما يجعل من الثقافة سلوك يتجه إلى التربية و إلى خدمة المجتمع بينما وقع بعض المفكرين الآخرين من نقد للتقنية, ونقد للعقل العربي و نقد للعقل الغربي ، مما جعل فلسفاتهم حيز التجريد, و لكن ما تميز به المفكر مالك بن نبي ــبموضوعيةــ أن نظريته الثقافية تتناسب مع واقعنا المتخلف بحيث جعل من الثقافة أمراً قابلاً للتطبيق فالثقافة عنده العمل, هي تضحية, هي هم ، هي شعور بالواجب و بالمسؤولية وغيرها من القيم بحيث يمكن أن نقول أن

---

[1] محمد بغداد باي: التربية والحضارة,ص216.

[2] على قريشي: التغيرات الإجتماعية عند مالك بن نبي ,ص302.

الثقافة : << **يغذي الإجماع التربوي المستقل, خاصة إن الواقع السوسيولوجي و التربوي عموماً مازال يفتقد النظرية و نهج المستقلين** >>[1].فهي برنامج تربوي ثقافي بهدف إلى توجيه السلوك العلمي مما يجعل عالم الثقافة عنصراً هاما في تحقيق سلماً قيمي يحقق كرامة الإنسان العربي.

ولكن المتأمل ربما لتقييمنا للبرنامج الثقافي ، نجد أننا نتباهى بهذه النظرية ، رُبما لأننا بحاجة إليها في واقع مَأساوي يعيشه الإنسان العربي, أو ربما أصبحنا نتساقط على كل ما هو جدير بالطلب إن صح التعبير إلاً أن هذا لا يمنعنا من محاكمة المشروع الثقافي عند مالك بن نبي بالرغم من أن محاكمة أي مشروع إصلاحي تقتضي تطبيقه على أرض الميدان للمعرفة الإيجابي و السلبي منه , و هذا ما وقعت فيه للأسف الفلسفة العربية في أنها تحاكم مشاريع إصلاحية في حين أنها لم تطبق على أرض الواقع ، و هذا ما نجده مثلاً عند المهتمين بفكر مالك بن نبي بحيث أنهم تباهوا أو استبشروا خيرا لهذا المشروع إلا أنه للأسف بقي الحال كما هو عليه . كما أن مشروعه بالرغم من تناسبه مع وضعنا و مع أصولنا إلاّ أنّه لو وضعنا مقارنة مثلاً مع الفكر الغربي نجد أن ألمانيا و حدها تكشف ثلاثة نظريات في يوم واحدٍ!!!(وهذا ما يدعونا إلى ضرورة تجديد المشاريع الإصلاحية).

و لقد تعرفنا من قبل أن البرنامج الثقافي يتميز بمعادلة رياضية التي كان الإنسان مفاعلا فيها حيث اهتم بالإنسان : **الإنسان + تراب + وقت = حضارة** و جعل من استغلال الإنسان للتراب و الوقت ضرورة سوف تحقق لنا حضارة و تقدماً في حين يعتبر **غازي التوبة** أن هذه المعادلة هي غير صحيحة بالضرورة ، فاستغلال الإنسان إذن للتراب و الوقت لا يعطى بالضرورة حضارة حسب المعادلة :

إنسان + وقت + تراب = حضارة

فقد تكون :

إنسان + وقت + تراب = دمَار.

و الوضع الصحيح للمعادلة هو إنسان متوازن= حضارة ولما كان المسلم حتماً متوازنا تصبح صورة المعادلة إنسان مسلم= حضارة[2].

---

[1] على قريشي: التغيرات الإجتماعية عند مالك بن نبي :ص305.

[2] آمنة تشيكو: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي, وارنولد توبني لمؤسسة الوطنية للكتاب, الجزائر,1989,ص143.

رُبما لو نقف قليلا مع نقد غازي توبة للمعادلة الرياضية البنيوية نجد أن غازي التوبة كان يحمل نظرة إيديولوجية للمشروع البنيوي أكثر منها معرفية لأنه مالك بن نبي أعتبر أن الإنسان لا يستطيع القيام بأي نشاط حضاري و إنساني وثقافي إلا من خلال **الفكرة الدينية** التي ترافق المركب الحضاري خلال التاريخ[1].

إلاّ أن ما يمكن الوقوف عليه في مشروع الثقافي و أنا توغلت قليلا في خباياه أن هُناك شمولية في المشروع بحيث نجد أن المعادلة هي بناء ثقافي جمع فيه مالك بن نبي بين عالم الأشخاص و عالم الأفكار و عالم الأشياء لتحقيق حضارة و مزجه بالدين لتحقيق الفعالية إلاّ أنّ هناك روح لم تظهر خفية هي السُلطة بالرغم من أن مالك بن مثل "**كانط**" كان يعترف بسلطة الضمير و لكن نقول : أن السلطة الخارجية أيضا دور في الوصُول إلى طريق الحضارة لأنها هي التي تهيكل العمل وتحافظ على رؤوس الأموال وهي التي تحفز الفرد بقيام أي نشاط إنساني وهذا ما وجهه المفكر الفرنسي "**روجي غارودي**" لمشروع الثقافي لمالك بن نبي فنحن نحتاج إلى سلطة سياسية لكي يحقق لنا التوازن الذي بدوره يدفع الإنسان إلى العمل مضيا للوصول إلى طريق الحضارة, فنجد أن مالك بن نبي عندما رسم المعادلة الرياضية قد ربطها كما قلنا سابقا بالفكرة الدينية أو ما يسمّى بالإديولوجيا, لكن من المفروض أن يكون الإنسان المقصود بالحضارة هو الإنسان المسلم, لأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي إقترن بالقيم الأخلاقية لكن الديانات الأخرى ركزت على التكنولوجيا و المدنية, و من هنا يكون مالك بن نبي قد همّش الإنسان بإعطائه للحرية في إختيار الإديولوجيا فهناك العديد من الإديولوجيات المادية التي قضت على حقيقة الإنسان و نظرت إليه نظرة مادية كباقي الأشياء هذا من جهة و من جهة ثانية فإن مالك بن نبي يصدر حكما عاماً على عدم فعالية الإنسان المسلم, و نحن نعلم جميعاً أن تعميم الظواهر الإنسانية لايجدي نفعاً كما أن الإنسان المسلم أثبت فعاليته في المجتمعات الغربية هذا ما يقودنا إلى القول أن مشروع الثقافي لماك بن نبي يحتاج إلى **سياسة راشدة** لأن هذا ما تفطّن إليه الإتثربولوجي الفرنسي "**كلود ليفي ستروس**", الذي يؤكد أن ليس هناك إنسان متقدم أو متخلف إنما هناك سياسة متقدمة و أخرى متخلفة,كما أن المشروع المكمل و البديل الحقيقي لمالك بن نبي هو مشروع"**روجي غارودي**" , الذي ربط الثقافة بقوة و فعالية السياسة أو ما أسماه هو بأسياد المال و السلطة كعنصر أساسي يجب أن تضاف إلى معادلة مالك بن نبي, فالإنسان لا يأخذ مكانه الحقيقي و لا تكن له فعالية ما لم يخضع للأسياد المال و السلطة للمثقف, و هذه هي الأزمة الحقيقية التي يعاني منها العالم الإسلامي اليوم.

لذا يجب أن تفجر معادلة مالك بن نبي لتجاوز مشكلة القيم :

منتوج حضاري = إنسان مسلم + تراب + و قت + خضوع أسياد السلطة و المال للمثقف

---

[1] مالك بن نبي: شروط النهضة ,ص66.

و هذا بطبيعة الحال هو حال أي فكر : علينا دائما أن نقف مع روح المبادرة و النقد و التعديل لأي مشروع نهضوي سواء كان ثقافيا أو سياسيا أو اقتصاديا لأن العالم اليوم هو في ثورة فكرية لا تعترف إلاّ بالنظريات التي تصمد أمام كل هجان و هذا هو الحال مثلا الفلسفة التي كانت تبحث عن سؤال المعرفة من "**عهد فيثاغورس**" إلى البحث عن سؤال القيم إلى سؤال المفهوم و هذا ما نجده في الفكر الغربي في حين بقي الفكر العربي و منها حتى النظرية الثقافية لمالك بن نبي تحتاج دائما إلى من يحييها و يبلورها لمعرفة أسرارها و خباياها **فهل ندرك الأمر؟**

و في الأخير نستخلص جملة من النتائج التالية:

تميز ابن نبي لتحليله للنظرية الثقافة و تركيبة لعناصرها فلا معنى لتاريخ من دون ثقافة, ولا وجود لثقافة من دون تاريخ، والثقافة هي ليست هي علماً, ليست كتابة في الكتب والمجلات, ليست ذكاء في معرفة, بل هي سلوك عملاً هما, هي تضحية, هي شرف , هي مبدأ بل مبادئ و فق هذا وضع شاهد القرن برنامجاً تربوياً شاملا للتحكم في عالم الثقافة: تربية أخلاقية من أجل التضامن و التكافل و التعاون لأن أي سقوط إجتماعي يصيب عالم الأشخاص فانه يؤثر فيها على عالمي الأفكار والأشياء.

و لا تقوم قائمة لهذه الأمة إلا بثقافة يعود الرابط بين جميع العوالم المختلفة و المتنوعة و حاملة لهدف واحد وهو صنع الحضارة.

و تربية جمالية من أجل فعالية الفرد و جمالية المحيط و الجمالية الإنسان في ذوقه وملبسه و مشيه و نظره و فكره من أجل حياة جميلة.

و تربية عملية من أجل بناء إنسان عامل يعطي للعمل مكانة و للوقت رصيده الخاص به، فكم من أوقات ضاعت فجاءت فيها ثقافات لم نسمع فها كان لها دويّا على سلم القيم تارة إيجابيا و تارة سلبي.

و تربية فنية خلدونية يوفرها العلم من أجل أن يحقق عالم الأشياء يتوازن فيه مع عالم الأشخاص و الأفكار.

و أي تقديم او تأخير في عنصر من عناصر التربية الثقافية فإنه ترتيب عليه آثار في سلم القيم لذالك فان لكل عنصر و قيمتة فما علينا إلاّ أن نضع أيدينا على جميع العناصر فلا إفراط ولا تفريط .

و بهذا قد نكون قد فهمنا أن صح التعبير مفهمة الثقافة التي عرفت في العالم الغربي، و قد أخذت نصيبها من الاهتمام والتنقيب والبحث و لم يعد عندهم الهم الفكري في المصطلح، بقدر ما أصبح الاهتمام بهوية الثقافة و بهذا فثقافة الغربية تعيش ثقافة العلم و التقنية و الأنوار, هذا ما يجعلنا نقول إن المثقف العربي دوره في إرساء معالم الثقافة التي ذكرها شاهد القرن وقد تميز بن نبي في تحليله للثقافة و فق عناصر دعت إلى أن تكون فلسفة الثقافة قائمة على

فلاحة النفس كما عرفت الثقافة بأنها فلاحة في الأرض، و بهذا نكون قد أخرجنا مثقف الذي اليوم حبيس الجامعة وحبيس التأليف و حبيس النقاش و الجدل إلى مثقف واقعي يحل مشاكل الناس بل على الأقل يشعر بمشاكل الناس و همومهم, فمتى كانت الثقافة و المثقف وفق خطة تجمع بين عمق و فعالية العمل على أرض ووفق هدف مشترك بين جميع أفراده كانت القيم التي تحقق لنا الحضارة و تحقق لنا التطور والتقدم، و ما هذا إلاّ طريق نسلكه إلى سبيل الحضارة و إلا بقينا عطشا نموت جوعا بل نموت فكراً نموت ثقافةً فنموت ان لم نقل نعدم حضارة.

إنّ المسلم المعاصر هو منزوع منه الحضارة واستسلم للواقع بسبب وجود مجوعة من المورثات السليبة, بحيث لم يعد قابلاً لأي عمل حضاري إلاّ إذا تلخص من هذه المورثات والأمراض التي منها الذرية و التعالم و وصول فكرة الآخر والانغماس فيه و العكس من ذالك البقاء في جذور الماضي و البكاء عليه مما خلق لنا القابلية للاستعمار و خلق لنا ثقافة سلبية هشة تغيب عنها الفاعلية ، هذه الفاعلية التي يجب أن نغرس القيم الأخلاقية وأن نستثمر جميع المواهب والقدرات وأن يكون الإطار الاجتماعي الإيجابي ينمي الإرادة لصناعة التاريخ لذلك علينا أن نغير الوسط الاجتماعي لأنه يعمل على تغيير الإنسان و يوفر جميع الحلول للخروج من هذه النكسة.

و قدم أيضا ابن نبي حلولاً علاجية لمعوقات النهضة و قدمها في ضوء سلسلة مشكلات الحضارة و أكد على ضرورة أن تلعب الثقافة دوراً في تغيير الإنسان فخلق لنا فلسفة الإصلاح و التغيير وفق العالم الثقافي إراده مالك بن نبي أن يكون أخلاقيا إلا أن الواقع يقر الوضع الحالي يغرق في عالم جمالي ابتعد قليلا فقليلا عن أصول الجمال الحق و لكن رغم هذا قدم لنا حلولا هي ليست سهلة وليست مستحلية تناسب مع الظروف المحيطة للإنسان العربي من أبسط عمل : غرس شجرة إلى تخطيط اقتصادي إلى فعالية موجهة نحو الأفكار إلى عالم ثقافي تكون نتيجته أن القيم تعرف مسارها إلى أين تسير؟

في تقييمنا للمشروع الثقافي الفكري لمالك بن نبي يؤكد مدى صحة هذه الأفكار و لكن لا نعرف مدى صلاحيتها ومدى مقاومتها للانجرافات و هيجان الأوضاع بالرغم من أن بعض الدول نسمع عليها من هنا و هناك أنها تطبق التفكير البنيوي و لكن نقول و نؤكد أنه متى كانت الثقافة تحمل في طياتها تربية شعار هّم سقراط و تضحية سقراط فإننا نقول أننا هكذا نركب طريق النجاة و سفينة الأمان لأنها اليوم كثرت السفن و لكن لا نعرف إلى أين نسير؟ في ضوء عالم يعرف اليوم الكثير من التغيرات و المستجدات الجديدة.

وبالرغم من شمولية الأفكار و فعاليتها في المشروع الثقافي البنيوي نحتاج دائما إلى مؤسسة بل إلى مؤسسات لتحقيق أي مشروع نهضوي بل أكثر من ذلك نحتاج إلى إرادة ، ووعي ، وضمير ، وإخلاص لتحقيق طريق الحضارة الذي هو طريق الحضارة الثقافية.

وفي الأخير يمكن القول إن الكلام عن أي مشروع نهضوي حضاري يبحث عن هدف و هو تحقيق حضارة تسعى إليها كل البشرية باختلافها و تنوعها تُحليلنا مباشرة إلى العقول التي بحثت في هذا المجال و منهم مالك بن نبي, الذي يسعى للوصول إلى هذا الهدف وفق عالم ثقافي مكوّن من ما أسماه مالك بن نبي بالتربية الثقافية التي تسير جنبا مع جنب لسلم القيم, وفق تناغم و انسجام مع العوالم الثلاثة عالم الأشخاص, و عالم الأشياء و عالم الأفكار.

و يمكن أن نستخلص مجموعة من النقاط منها من خلال هذا البحث:

إنّ مالك بن نبي قد عاش حياة إنسان مثقف, يسعى وفق ما كتبه قريحة عن مشكلات الحضارة لبناء مجتمع سليم, وفق نظرة تجمع بين موروث أصيل و منهج معاصر, وفق ما شهدته العقول الفلسفية التي قلبت و نقبت فكرة وهذه شهادة حق و اعتزاز لمفكر جزائري, كان له أثر بأنه أدخل العقل الفلسفي الجزائري ضمن الفلسفة العالمية, و خاصة الفلسفة العربية, و هذا ما تحسب لمالك بن نبي لأنه بحق كان همه الوحيد همّ الفلاح النجّار,الحدّاد , الطبيب و حتى المثقف, فكان نخلة فكرٍ في الفكر العربي يرمز إلى ثراء وتنوع في فكره غير متعصب يملك فلسفة الإختلاف و قبول الآخر, و يملك ثقافة بناء الذات و تربيتها , إلا أنني و أنا أكتب هذه الكلمات بالرغم من أنها شهادة معروفة لمفكر مثل شاهد القرن جاءني شاهد العقل أن صح التعبير إننا لسنا بحاجة إلى هذا التباهي لهذا الفكر بقدر ما أننا بحاجة إلى إسقاط هذا الفكر في الواقع أو فكر آخر هذا لا يهم بقدر ما يهمنا أننا نخرج إنسان هذا العالم و خاصة إنسان العالم العربي من وجعه سوآء من فكره أو سلوكه أو رؤيته للعالم أو دوره و رسالته في هذا الزمن الذي أصبحنا نعيش في حياة لا أستطيع أن أسميها حياة ثقافية, بل أسميها حياة عشوائية مضطربة, إضطرابها جعلها ندفع الثمن وهو البقاء في ذيل الركب الحضاري فهل **نعي الدرس؟**

كوننا أولاً و قبل كل شيء, مسلمين كانت أولى رسالتنا تحريك العقل و تنويره على عالم الواقع و الآية يعرفها الصغير و الكبير, وبينما بقينا نبحث عن فكر قديم و بالرغم من أننا نحّن للقديم, إلاّ أننا نقول بلغة شاهد القرن غير نفسك تغير مجرى التاريخ هذا يعني علينا دائما أن نبحث ونحاول بقدر الإمكان بِفحصِ و نتقيب أي فكر, بإرادة و مسؤولية لكي نتقدم إلى دور أكثر قربا إلى الفلسفة و هي تغيير الواقع و صنعه, و نقول أن فكر مالك بن نبي و خاصة الثقافي منه كان وليد لظروف معيشية معينه هذه الظروف مغايرة لعصرنا الحالي,لذا وجب علينا كباحثين أن نفكر في فلسفة جديدة تخدم واقعنا و خصوصية زمننا فليس العيب أن نعتمد على أفكار مالك بن نبي و لكن العيب كل العيب أن نعتمد على فكر مالك بن نبي وحده, و جعل العقل العربي أسير و سجين لهذا الفكر مما يمنعنا من الجرأة و الإبداع .

وتميز مالك بن نبي في مشروعه الحضاري بأنه كان يملك شمولية في مشروعه اقتصاديا سياسياً, دينيا و حتى ثقافياً, و سعى في تحليلية, و تركيبه للثقافة إلى بناء إنسان مغاير عن إنسان ا لما بعد موحدي, يحاول من خلال الثقافة و فق جميع محاضراته, دائما أن يتكلم عنها نحوها مهمة بحيث أعطاها مفهوماً كما قلنا سابقا شاملاً جمع فيه بين قيم أخلاقيه و اجتماعيه, و هي المحيط الذي يكون شخصية الإنسان عبر مؤسسات و مصادر القيم من أسرة و مسجد و مدرسة و مجتمع, و أي عطب و خلل لهذه المؤسسات تحلنا إلى ثقافة مضطربة و منحل, و هذا ما يؤكده الواقع و كان يحاول تحريك المثقف في عا لم لا يعرف إلاّ بقوة العقل و إثبات و جوده, و فق ثقافة كان صانعها ليست المدرسة كما يراها مغلب و معظم الناس و إنما الثقافة هي سلوك و معرفة و عمل و فكرة تضحية, لان مالك بن نبي لم ينكر المعرفة ولكن جعل من الثقافة هي أغلبها سلوكا يترجمه الواقع, فهو يدعو إلى ثقافة علمية حيوية, فرسم عالما ثقافيا و برنامجاً تربوياً كانت التربية الأخلاقية حاضرة بقوة في مشروعه الثقافي و هذا ما تحتاجه اليوم في ظل أزمة القيم و غيابها و تربية جمالية تحاول رفع ذوق الإنسان لتنمية الخيال و الإبداع الجمالي إلاّ أن هناك من لنسميهم بمن بمثقفين بان مالك بن نبي قد تأثر بالفكر الغربي في هذه النقطة فأي ثقافة و أي فكرة و أي فلسفة؟ هذه التي ترفض أي فكر من دون دراسته حتى ولو كان من غيرنا .و تربية عملية كان يحاول منها إخراج الإنسان من حالة الجمود إلى حالة الفعالية و من الخلود و الركود إلى العمل و النشاط و تحريك القلب و العقل و اليد لصنع التاريخ.

و تربية فنية وفق التاريخ الماضي بالمصطلح الخلدوني هي الصناعة أي توفير جميع الوسائل و الأشياء لقيام عمل حضاري.

فنقول إذا انه للخروج من المشكلات القيمة التي نلاحظها اليوم كغياب الوازع الأخلاقي فأكد على ضرورة حضور الفكر الدينة لصنع العمل المشترك.و انتشرت أخلاق القبح و الرداءة في الكلام و الفعل, فرسم عالما جماليا متناغماً و في الإنسان في ملبسه و مشربه,و مشيته, و في طريقة تفكيره.

و صار الإنسان في الجمود و غابت فيه الفعالية, وتعشت في سلوكاته و أخلاقه إضاعة الوقت و الاستهتار به فأكد على ضرورة و جود ثقافة عملية تهتم بالجانب العلمي لا النظري لذالك و أنا أكتب في هذا الموضوع أردت أن أبسطه لآن ما نحتاجه اليوم ليست تلك الثقافة التي تتخيلها البعض, أو الثقافة العالمية أو الثقافة واحدة أوالثقافة المتعددة أو هل نعيش ثقافة أم ثقافات؟ و هكذا من المواضيع التي تؤرق عقولنا بل نحن نريد ثقافة عرش شجرة ثقافة الكلمة الطيبة, ثقافة احترام الآخر, ثقافة التعاون والتضامن, ثقافة النحن, ثقافة الاختلاف و التنوع هذا كل ما في الأمر.إلاّ أن الناظر إلى الواقع نجد أن خال الثقافة نتجه نحو مسار ربما سوف يدمر الجمع هذا المسار هو مسار ثقافي

نهض فيه صوت القيم و اعتلى فيه صوت التعصب و الإيدلوجيات و الإرهاب بمختلف أنواعه خاصة الإرهاب الفكري, هذا ما يجعل المتأمل إلى واقعنا بعيد قراءة ذاته أولاً و غيره ثانيا لبناء ثقافة تقف أمام الوضع الحالي المتأزم.

وإن العالم الثقافي الذي أعطاه شاهد القرن ذو صبغة تربوية, أكد عليها لكي يكون هناك ثقافة تسعى إلى تهذيب سلوك الإنسان و فكره, إلاّ أن مالك بن نبي في مشروعه الحضاري هناك أمرُ خفي, وضحه فيما بعده المفكر "**روجي غارودي**" و هذه هي طبيعة الفكر الفلسفي الذي يتميز بالجرأة على الإبداع و التجديد و هذا تجديد في معادلته الحضارية التي نجدها كانت شاملة عند مالك بن نبي إلاّ أن "**روجي غارودي**",اعتبر أن الإنسان إلى بحاجة إلى سلطة دائما خاصة: سلطة المثقف على المال و رجل دولة يوجه و يسعى إلى الحفاظ على توازنه لكي يستطيع المحافظة على أكبر كنز و هو القيم.

و كذالك نجد أن شاهد القرن كان دقيقا في وصفه للثقافة الإسلامية عبر مشكلات الحضارة خاصة وضعه إنسان العالم الثالث بالقابلية للاستعمار, هذا المصطلح الذي أحدث صحة فكرية لدى بعض القراء لفكر شاهد القرن , إلاّ أني أقول لا يجب علينا أن نلقي اللوّم على الآخرين, بل علينا أن نلوم أنفسنا, أن هذا الاستعمار كان نتيجة طبيعة لابد منها لأمة جهلت نفسها ،و استثقلت تكاليف النهضة و حولت تفافتها إلى ثرثرة لفظية و تقاليد مازالت تعاني من التخلف و المعانات.

إننا فعلنا بأنفسنا أكثر مما فعله الاستعمار بنا!!!.

إلاّ أن شاهد القرن لم يقف هنا أعطى حلولاً و طرق لبناء عالم ثقافي و رسم خطة ثقافية مرهونة للنجاح عالم اقتصادي و هذا الرهان أكيد لتخطي إشكالية القيم.

فما عسّانا أن نقول علينا أن نضع أيادينا على هذه الأفكار و التصورات التي وضعها شاهد القرن و تحاول لكشفها مع ظروفها الحالية و نسعى دائماً إلى التجديد و موالية العصر وفق سفينة النجاة و هي الثقافة التي نراها هي الحل الوحيد لبناء الذات و تحدّي الرهان الجديدة و من هنا فإني حزين و قلق و لكن و جودي نحاول جمعا خاصة أولي الألباب من العقلاء أن يتداركوا هذا الحال, لبناء أجيال صالحة وفق ثقافة سليمة تعيدنا إلى طريق الحضارة حضارة اندثرت و تصدّعت و لكن بثقافة واعية و مثقف يوجه رجل المال و رجل السياسة سوف تستمر هذه الحضارة و تحيا. و الله هو ولي التوفيق.

الـفـهـرس

البسـملة

الـقـول

التشكر وعرفان

الإهــداء

الـمقدمة..... أ

الفصل الأول

شخصية مالك بن نبي ومنهجه في التفكير

المبحث الأول :المرجعية الفكرية لمالك بن نبي.....09

المبحث الثاني :العوامل المؤثرة في شخصية مالك بن نبي.....14

أولا: العامل التربوي.....14

ثانيا: العامل الإجتماعي.....15

ثالثا: العامل الثقافي.....17

المبحث الثالث :منهجه في التفكير.....19

الفصل الثاني

الخطاب النهضوي الثقافي في فكر مالك بن نبي

المبحث الأول : الإنسان مشروعا حضاريًا.....30

أولا: أولوية الإنسان.....30

ثانيا: تصنيف مالك بن نبي للإنسان.....33

ثالثا: الهيكلة التربوية.....36

المبحث الثاني : فكرة التوجيه و دورها في البناء الحضاري.....41

أولا:مفهوم التوجيه.....41

ثانيا: أهداف التوجيه.....43

المبحث الثالث : المشروع الثقافي عند مالك بن نبي.....46

أولا: مفهوم الثقافة.....46

ثانيا: الثقافة كشرط من شروط النهضة عند مالك بن نبي.....50

ثالثا: الثقافة تعريفاً و مفهوماً.....55

رابعا: المثقف دوره و رسالته.....65

الفصل الثالث

القيم و الثقافة الإسلامية المعاصرة

المبحث الأول : التركيب النفسي للثقافة.....73

أولا: الثقافة و العلم.....73

ثانيا: معنى الثقافة في التاريخ و التربية.....76

ثالثا: العناصر الثقافية و أثرها على القيم.....78

رابعا: التوجيه الأخلاقي و الجمالي و إشكالية القيم.....83

المبحث الثاني : سِمَات الثقافة الإسلامية المعاصرة.....89

أولا: اللفظية.....89

ثانيا: الفخر و المديح.....90

ثالثا: الجدل و التبرير.....91

رابعا: الذرية.....92

خامساً: التعالم.....92

سادساً: الاضطراب الفكري و السلوكي.....93

سابعاً: القابلية للاستعمار 93

المبحث الثالث : الحلول العلاجية لبناء ثقافة الإسلامية معاصرة.....96

أولا: إعادة تشكيل شبكة العلاقات الاجتماعية.....96

ثانيا: تقديم الواجب على الحق.....96

ثالثا: إعادة المكانة للوقت و التُراب.....97

رابعا: التخلص من القابلية للاستعمار.....98

خامسا: تصفية الثقافة من جملة الآفات.....98

سادساً: التوجيه العملي و الإقتصادي.....100

المبحث الرابع : نقد و تقويم المشروع الثقافي لمالك بن نبي.....104

الخاتمة.....110

المصادر و المراجع.....114

الفهرس.....119

القرآن الكريم

أولاً: المصادر

1. مالك بن نبي : مذكرات شاهد القرن الطفل و الطالب, دار الوعي, الجزائر ط1.
2. ـ: تأملات, دار الوعي, الجزائر,ط1, 2013م.
3. ـ: شروط النهضة,ترجمة عمرمسقاوي,عبد الصبورشاهين, دار الفكر,بيروت,ط3, 1969م.
4. ـ:مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ,دار الفكر بيروت,ط1 , 1988م.
5. ـ: وجهة العالم الإسلامي,ترجمة عبد الصبورشاهين,دارالوعي,الجزائر,ط1, 2013م.
6. ـ: مشكلة الثقافة, ترجمة عبد الصبور شاهين, دار الوعي, الجزائر ,ط1 ,2013م .
7. ـ: أفاق جزائرية ترجمة شريف مكتبة النهضة الجزائرية بدون تاريخ .
8. ـ: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين,درا الفكر,ط1, 1978م.
9. ـ: من أجل التغيير, دار الوعي, الجزائر,ط1, 2013م.
10. ـ: مجالس دمشق, دار الوعي,الجزائر,ط1, 2013م.
11. ـ: بين الرشاد و التية, دار الفكر, دمشق,ط1, 1978م.
12. ـ: الصراع الفكري في البلاد المستعمرَة, دار الفكر, دمشق, سوريا,ط1, 1988م
13. ـ: فكرة كومنولث إسلامي, مكتبة عمار, القاهرة,ط2 ,1971م.
14. ـ: الفكر الإفريقية الآسيوية, ترجمة عبد الصبور شاهين, دار الوعي الجزائر, ط1 ,2013م.
15. ـ: القضايا الكبرى, دار الوعي, الجزائر,ط1, 2013م.
16. ـ: ميلاد مجمع,ترجمة:عبد الصبور شاهين, دار الفكر, دمشق, سوريا ,ط3, 1976م.
17. ـ: من أجل التغيير, دار الوعي, الجزائر,ط1, 2013م.

ثانياً: المراجع

1. إبراهيم عاص: حوار مالك بن نبي, مركز التربية الإسلامية, دار لسا, ط1 , دون تاريخ.
2. إبن خلدون: مقدمة تحقيق لحامد أحمد الطاهر, دار الفجر للتراث, القاهرة ,ط2 ,2010 م.
3. ادوارد سعيد: صورة المثقف ترجمة غسان غصى,منى دار المنار,بيروت,1946م.
4. أسعد السحمراني : مالك بن نبي مفكراً إصلاحيا.
5. اسماعيل سامعي: مالك بن نبي و الفقه الحضاري,دار الهدى, الجزائر 2006م.

6. امانويل كانط: أسس مسافيريقا الاخلاق,تر: عبد الغفار مكاوي,دار الفنون للطباعة و النشر , القاهرة,بدون طبعة,بدون سنة.
7. آمنة تشيكو: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي, وارنولد توبني لمؤسسة الوطنية للكتاب, الجزائر,1989م.
8. أوليد بوعديلة : التغير الإنساني, في فكر مالك بن نبي, دار الهدى, الجزائر, ط1, 2006م.
9. برهان غليون: تهميش المثقفين و مسألة النخبة القيادية, بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
10. بشير ضيف الله: فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي, 2005م..
11. بوراس يوسف: الفكر السياسي عند مالك بن نبي,دار هومه, الجزائر, 2013 م.
12. حسان بركان: الرؤية النقدية لفلسفة التنمية عند مالك بن نبي, منشورات مخبر جوار الحضارات والعولمة2015م.
13. زكي نجيب محمود: عربي بين ثقافتين, دار الشروق, ط1, 1999م.
14. ضيف الله بشير:فلسفةالحضارة في فكرمالك بن نبي منشورات المجلس الأعلى بدون ط سنة 2005 م.
15. طونيب بينتيت:مفاتيح اصطلاحه جديدة ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت،ط 1، 2010م.
16. عبد الاله بلقيز: نهاية الداعية الممكن والممتنع في ادوار المثقفين،بشبكة العربية،بيروت، ط1 2010م.
17. عبد الحليم مهور باشا: فلسفة الثقافة, الجزائر، 2015م.
18. عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي,دار الشهاب , الجزائر.
19. علي القريشي: التغير الإجتماعي عند مالك بن نبي, الزهراء للإعلام العربي, القاهرة,ط1, 1989م.
20. علي حرب: أوهام النخبة و نقد المثقف, المركز الثقافي العربي, بيروت, ط3, 2004م .
21. علي حرب:نقد النص , لمركز الثقافي العربي, بيروت, ط1, 1993م.
22. عمر بن سليمان: فلسفة ثقافة،الجزائر,2015م.
23. فاطمة فرفودة: مفهمة الثقافة و ممكنات فلسفة الثقافة, الجزائر ,2015 م.
24. فرويد: مستقبل الوهم,ترجمة:جورج طرابيشي,دار الطبيعة,بيروت,بدون طبعة بدون سنة.
25. قاسم أحمد الشيخ بلحاج: نظرية الحضارة عند المفكر مالك بن نبي,دار الجاحظية, 1998م.
26. مجموعة من المؤلفين:نظرية الثقافة ترجمة على سيد الصاوي,سلسلة المجلس الوطني للثقافة و الفنون والأدب, الكويت,بدون طبعة,1997م.
27. محمد الغزالي :هموم داعية , عالم الأفكار, الجزائر .

28. محمد بغداد باي,التربية و الحضارة, عالم الأفكار,ط2, 2007م, الجزائر.

29. محمد عابد الجابري: المثقفون العرب محنه ابن حنبل و نكبة ابن رشد، بيروت, مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 2010م.

30. محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي,ط1,الدار التونسية,تونس 1972م.

31. هانر جورج غاداماز: الحقيقة و المنهج ترجمت حسين ناظم,على حاكم صالح,دار أويا للطباعة و النشر و التوزيع و التنمية و لثقافة,طرابلس,ط1, 2007م .

32. هيغل:فنولوجياالروح,ترجمت ناجي العويلي,مركز الدراسات الوحدة العربية,بيروت,ط1, 2000م.

ثالثاً: الموسوعات و المعاجم

1. إبن منظور: لسان العرب, دار الكتب العلمية,ط1, 2015م.

2. جميل صليبا:المعجم الفلسفي, جزء1 , دار الكتاب اللساني, بيروت, لبنان ,1982م.

3. لالاند أندري: موسوعة لالاند الفلسفية،ج1,تر أحمد خليل،منشورات عويدات بيروت لبنان ط2،2001م.

رابعاً: المجلات والدوريات

1. عمار طالبي : مالك بن نبي و مسلكه الحضارة, مجلة الثقافية, الصادرة بالجزائر عن الوزارة الإعلام والثقافة, العدد 18, 1973 م .

2. عبد الطيف عبادة:مناهج الحركات الإسلامية المعاصرة في التغيير, نقد وتقويم إنطلاقا من فكر مالك ين بني مجلة المرافقات العدد الثالث, جوان1994م الجزائر.

3. محمد الهادي الحسني:مالك بن نبي لمحات من حياته وقبسات من فكره,مجلة الموافقات العدد الثالث جوان 1994م,الجزائر .

4. محمد البشير مغلي :مالك بن نبي كان امة واحدة براعة فكرية ومهارة تحليلية,مجلة الموافقات, العدد الثالث ,الجزائر جوان 1994م.

5. ميشال فوكو: وظيفة السياسة للمثقف عز الدين خطابي، مجلة رؤى فلسطين عدد26, 2010م.

6. محمد شاويش: مالك بن نبي و شروط النهضة،التبين، عدد 19, الجاحضية.

خامساً: الرسائل الجامعية

1. الاخظر شريط :مشكلة التاريخ عند مالك بن نبي رسالة ماجيستير معهد الفلسفة, 1989م.

2. سلوى بن جديد: مفهوم التبعية عند مالك بن نبي,رسالة ماجستير,غبر مشورة جامعة الجزائر,السنة الجامعية1994-1995.

3. العابد ميهوب: الفكر التربوي عند مالك بن نبي, رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة محمد خضير, بسكرة,2014م.

سادساً: المواقع الإلكترونية

1.زكي الميلاد, مشكلة الثقافة (تطور و المنهج) موقع الأستاذ مالك بن نبي تاريخ2016/03/03 ,الوقت 21:30.

1. يوسف بوراس : الفكر السياسي عند مالك بن نبي, 22.
2. زكي الميلاد, مشكلة الثقافة (تطور و المنهج) موقع الأستاذ مالك بن نبي تاريخ2016/03/03 ,الوقت 21:30.

يشهد العالم المعاصر اليوم تاريخا ساخنا كما يُسميه علماء التاريخ, فالناظر إلى الحالة المتأزّمة التي وصل إليها الإنسان المعاصر, سوف يتأسف و يبكي دمعاً على حالة هذا الإنسان الذي أصابه العطب و المرض في كلّ المجالات حيث نجده يتألم في سلوكه, و في تفكيره, و في عيشه, و في مصيره, يتألم أيضا في ثقافته, هذه الأمراض و الأوصاف تُحيلنا حتمًا إلى حضارة إنسانية تشوبها الكثير من الآفات و الأخطار.

و لو نعد قليلا إلى الوراء, لكي نتذكر الماضي, لالنبكي علية كما يفعل البعض بل لكي نستشفّ منه الدّواء و نأخذ منه العبرة, فنجد أنّ الإنسان كان يعيش في وضع أفضل بكثير مما هو عليه اليوم, بحيث كان يعيش في مأمن مع غيره, كان يحاول بأفكاره بناء إنسان و عالم طبيعة في جوّ وعالم نظيف تسوده القيم التي تعبر عن إنسانية هذا الإنسان, محاولاً فيه الوصول إلى الأهداف من دون تعنت و إستكبار و تهجم و تعصّب.

و لقد جرت أقلام المفكرين في الوضع الذي يشهده الكثير من التغيرات لمحاولة إرشاده الإنسان و إرجاعه إلى الطّريق الصحيح, و يمكن القول هنا في ظل هذه الهزات ليست الهزات الأرضية, بل الهزات الحضارية أن نرجع هاته الأزمات و النكسات إلى عدّة اعتبارات سياسية و إقتصادية و أخرى إجتماعية و دينية بل يمكن إرجاع سبب هذه الأوضاع إلى عامل آخر يجمع بين جميع هذه الاعتبارات السالفة الذكر: إلى العامل الثقافي أو نقول بالأحرى **الثقافة** هذه الأخيرة تعبّر أن أي انتكاسة أو أزمةٍ لمجتمع متحضّر, أو في طريقة إلى التحضّر, أو مجتمع ينموأو مجتمع يَغُط في نومه و سُباته إلاّ و الثقافة سبب في ذالك.

فالثقافة هي الرّصيد الحضاري الذي يُميز شعوب العالم, و هي التي تعطي كل الشعوب العالم خصائصه أفكاره و ذهنياته التي تقوده إلى الرّكب الحضاري, أو تسقط هذه الشعوب و تجعلها في أسفل السّافلين, زيادةً على ذلك هي عَالة على المجتمعات الإنسانية, إن لم نقل حتى على الأرض التي يسيرون عليها لماذا؟

لأن عالم ثقافة هذه الشعوب لا يملك القدرة حتى على الوقف.

و تعتبر الثقافة من بين أهم المحطات التي لقيت حظاً كبيراً في عالم الدراسة و التفكير, بحيث نجد أنّ الدراسات الغربية و العقل الغربي –إن صحّ التعبير– استطاع أن يبلور الثقافة كمفهوم, و نجح في خلق جوّ و عالم ثقافي يتماشى مع التطورات التي عرفها الإنسان عبر التاريخ.

فمن ثقافة الإنسان الأوّل الذي حاول أن يعيش مع الطبيعة رحيمًا عليها و مؤنساً لها, إلى ثقافة إنسان هذا العصر الذي أصبح لا يبحث عن قوت يومه كما فعل الإنسان الأول, بل أصبح يبحث عن معنى وجوده و دوره ورسالته و كلمته في القرن الواحد و العشرين, لصنع ثقافة هدها الأوّل السيطرة على هذا العالم, و من ثمه تحقيق

الهدف الحضاري, فالثقافة هي سفينة النجاة في ظل الأزمات و النكسات في عالم كثرت فيه سفن النجاة, فهناك من يدعوا إلى أن سفينة النجاة تكمن في العودة إلى الأصول الأولى,و هناك من يرى أن سفينة النجاة هي الحوار و العيش مع العالم الأخر في حوار دائم ومتصل, و الآخر يرى أن سبب النكّسة و العار في إتجاه السياسة و الحُكّام فعلينا أن نراجع حساباتنا و ندقق في سياساتنا, و إلاّ فإننا ماضون في طريق التخلف و الانهيار.

إلا أننا نؤكد أنه متى كان لشعبٍ من شعوب العالم سوآء في الشرق أو في الغرب أو في الشمال و الجنوب و سوآء كانوا مسلمين أو مسحيين أو شيعيين أو غير ذلك من المذاهب, ثقافةً واعيةً متى كان استحقاقهم و نجاحهم و تحديدّهم أكثر و أوفر لتجاوز الأزمات و المعاناة هذا ما تحاول فيه اليوم الحضارة و الثقافة الإسلامية صُنعه, و إن كانت الحضارة الغربية قد نجحت في ذالك و لعل البعض يرى غير ذالك و هو حُرّ في ذالك, إلاّ أني أدعّم موقفي بالواقع مثلاً:

إن الإنسان الأمي اليوم, أو الذي يحمل قليلاً من الإدراك عندما يرى إعوجاجاً أو نقصاً أو تراجعاً في قطاع من القطاعات مثلاً: في الإدارة أو في المدرسة أو في المجتمع, أو يري مثلاً تصرفاً غير لائقاً يُسيء إلى الصّالح العالم و إلى نظام المجتمع, يُشير مباشرة بقوله هذه : ثقافتنا رضينا أم أبينا .

و لقد اهتمت أيضا الدراسات العربية بموضوع الثقافة, خاصة في الآونه الأخيرة و في ظل المستجدات الجديدة التي يعرفها العالم العربي من ثورات و حراك شعبي هذا جانب, و جانب الآخر المهم هو ما يعرفه شباب المسلم الذي نأمل فيه الخير كما علمنا رسولنا الكريم هذه العقول التي تطرفت دينياً و فكرياً و جمدت عقلياً نتج عن هذا كلّه اضطراب سلوكي, ندفع اليوم ضريبة غالياً.

و ما من مفكرٍ في العالم العربي إلاّ وكان للثقافة نصيب من فكره, ربما لسحر الإسم و إن كنا نتعوّذ إطلاق المسميات كما فعل إبن عربي من قبل وهذا بقوله: <<اللهم أيقظنا من بحر الأسماء>>, أو ربما لثرثرة لفظية و كثرة كلام و هذا ما نشهده للأسف مع مثقفينا اليوم.

و لكن نجد موضوع الثقافة و عالمها و أركانها و عناصرها قد طرح بنكهة خاصة و أكثر جدّية مع المفكر الجزائري "**مالك بن نبي**", هذا المفكر الذي إهتم و صب جلّ فكره في محاولة لرصد المشاكل الحضارية التي يعاني منها الإنسان خاصة, إنسان العالم الثالث, و حاول من خلال فكره أن يرسم نسقاً حضارياً من خلال سلسلة "**مشكلات الحضارة**" التي أعطاها بعداً للخروج من أزمة التخلف و الركود و التكديس إلى التقدم و الفعالية و البناء, وإن الحل يكمن عند الذات لا الآخر.

و لا يمكن أن نصل إلى هذه الأهداف إلاّ من خلال رسم عالم ثقافي يسير جنباً إلى جنب مع سلم القيم لصنع إنسان قادراً على تحمل رسالته الكونية و الحضارية, لأن المتأمل إلى واقعنا يجد فيه أن عالم ثقافة هذا الإنسان و أخص بالذكر الإنسان المعاصر هو عالم ثقافي منهار تماماً يشكوا العديد من الآهّات و الأزمات ولكن من طبيعة الإنسان المسلم التفاؤل وهذا ما نجده عند المفكر "**مالك بن نبي**": **فكيف يمكن تكوين و خلق عالم ثقافي في ظل مشكلة القيم؟, وهل المشروع الثقافي الذي قدّمه مالك بن نبي كفيل بإخراج الإنسان العربي من هذه الأزمات و النكسات؟**

و إن من أهم الدراسات التي تناولت هذه المشكلة, و أقصد هنا المشكلة الثقافة في بحثي هذا مثلاً: مذكرة العابد ميهوب التي تناولت الفكر التربوي لمالك بن نبي, و مرجع لمحمد بغدادي الذي ساعدني في فهم و تحليل المشروع الحضاري لمالك بن نبي.

و لكن ركزّت على المصادر بالرغم من توفر المراجع التي تناول فهم المشروع الحضاري لمالك بن نبي, خاصة كتابية شروط النهضة و مشكلة الثقافة, فكتابه شروط النهضة تناول فيه فقه الحضارة و حركتها وسُننها الكونية و قوانينها, و كتابه أيضا مشكلة الثقافة لمالك بن نبي الذي اهتم بعالم الثقافة و أهم الأفكار التي تناقش هذه المشكلة, و من أجل تحقيق فهم كامل للمشكلة الثقافية في ظل أزمة القيم إرتأيت أن أتبع المنهج التحليلي

أولاً: لمناسبته مع الموضوع و ثانياً: لأني أردّت أن أحلل أفكار مالك بن نبي بشكل مبسط و ميسر, كما أعطي صورة, أكثر قرباً بواقعنا و لحالتنا الراهنة, و أحياناً كنت أتبع المنهج النقدي لكي لا أقع فيما وقعت فيه الدراسات المهتمة لفكر مالك بن نبي, هذه الدراسات تباشرت و تباهت بفكر مالك بن نبي,فأنا في بحثي هذا لم أجد و لا مرجع يوجه نقداً لأفكار مالك بن نبي من غير تعصب أو خلفية, وحاولت في ظل هذا أن أقدم قراءة معرفية جديدة لهذا الفكر , و لقد التزمت بالخطة التالية من أجل الوصول إلى هدفنا هذا, و الخطة تتكون من ثلاثة فصول, حيث يحتوي كل فصل على مجموعة من المباحث: بحيث نجد أن لكل مبحث عناصر, و الخطة كالتالي:

فالفصل الأول :عنوانه مالك بن نبي و منهجه في التفكير يحتوي هذا الفصل على ثلاثة مباحث كلها تدور في فلك واحد, بداية بحياة مالك بن نبي و أهم مميزاتها, و في المبحث الثاني أهم العوامل التي ساهمت في صقل فكرمالك بن نبي و أخيراً منهجه في التفكير و كيف كانت دراسات مالك بن نبي للوضعية التي تمربها الحضارة الإنسانية, كما أنّي ألوح في أذهانكم أن هذا الفصل لم يكن رحلة في حياة مالك بن نبي, بل حاولت أن أقدم في هذا الفصل أهم المقومات و الركائز التي شكلت شخصية هذا المفكر.

و لقد تميز مالك بن نبي بأن مشروعه كان عبارةً عن خطاباً حضارياً للإنسانية عامة و خاصة الأمة الإسلامية فكان عنوان **الفصل الثاني** :الخطاب النهضوي الثقافي في فكر مالك بن نبي, و احتوى هذا الفصل على ثلاث مباحث:

فالمبحث الأول تطرقت فيه إلى أهم بنية في مشكلات الحضارة و هو الإنسان من ناحية الأولوية و أهميته و العنصر الثاني تكلمت عن تصنيف البنيوي الذي يميز الإنسان و الإنسان الآخر من ناحية المحيط و الأفكار و العنصر الثالث الهيكلة و العملية التربوية التي قدمها مالك بن نبي لمحاولة بناء إنسان يستطيع القيام بالعمل الحضاري بما تكلفه السنن و يكلفه الواجب الإنساني, أما المبحث الثاني تطرقت فيه إلى أهمية فكرة التوجيه و مدى فاعليتها و دورها في البناء الحضاري من ناحية المفهوم و الأهداف لهذه الفكرة ولعلّ القارئ يعلم أنّ مالك بن نبي قد وجهه مشروعه الحضاري من نواحٍ ثلاثة الثقافة و العمل و المال .

لذالك تطرقت في المبحث الثالث إلى المشروع و التوجيه الثقافي, بدايةً من الثقافة, والثقافة كفكرة خاصة وهذا من ناحية الانطلاق و التأسيس,و لقد اعتمدت عدم التوغل في تاريخ المفهوم, بقدر ما حاولت أن أجيب عن كيفية يمكن تطبيق الثقافة في الواقع,لأن ما نحتاجه اليوم ليس المفهوم بقدر عملية المفهوم, و لأن عالم الثقافي قد اجتاحه الانشقاق و التصدّع, فحاولت من هذه القراءة أن أقدم تصورا علميا للثقافة أكثر منه بحث في المفهوم. و ذلك من خلال تقديم التحليل النفسي للثقافة و من خلال دور المثقف و رسالته في القرن الواحد و العشرين فكان هذا الفصل الثاني يبحث عن الفهم الشامل للثقافة .

أمّا في **الفصل الثالث** :و بعدما تعرفنا على كيفية تحقق الثقافة نظريا , تطرقت في الفصل الثالث إلى التركيب و التطبيق العملي للثقافة في التاريخ و التربية مع أهم العناصر و المقوّمات الثقافية و مدى أهميتها و تأثيرها على مشكلة القيم,و خاصة العنصرين التوجيه الأخلاقي و الذوق الجمالي و مدى تأثيريهما على جانب القيم .

و في المبحث الثاني تطرقت فيه إلى أهم السمات و المميزات التي تجلت في الثقافة الإسلامية المعاصرة ,بحيث ماكان تشتمل عليه الثقافة من اللفظية, و الفخرو المديح, إلى كثرة الجدل و تقديم المبررات , وميزة الذرية و التجزئة التي أصابت فكر الإنسان, إلى مرض عضال آخر التعالم الذي كان تأثيره على السلوك و الفكر شديداً.

إلى سمة وميزة أحدثت ضجة في العالم العربي وهي القابلية للإستعمار و مدى توفر الشروط اللازمة لاستقبال الاستعمار و الترحيب به, إلا أن هذه الأعراض هي سمة موجودة لظروف و أسباب تحيط بالإنسان, إلاّ أن هذه الأعراض يمكن إزالتها من خلال بعض الحلول العلاجية لإخراج الثقافة من هذا الواقع, إلى واقع آخر من خلال عناصر عديدة, إلاّ أني ركزت في بحثي هذا إلى أهم العناصر التي تناسب مع ضروفنا و مع حالتنا الراهنة, من إعادة

قوة العلاقات الإجتماعية, وتقديم الواجب عن الحق الذي طالما تطالب به جميع مؤسسات المجتمع المدني, إلى إعادة قيمة و مكانة الوقت والتراب لصنع المعادلة الحضارية, والتخلص من القابلية للإستعمار, ليس الإستعمار العسكري بل الإستعمارالفكري و الإقتصادي و السياسي, و تصفيه الثقافة و الجو الثقافي من العديد من الأمراض و الآفات إلى التوجيه التربوي و الاقتصادي الذي لا يمكن نجاح المشروع الثقافي إلابه.

و في المبحث الأخير تطرقت فيه إلى تقديم نقد و تقويم للمشروع الثقافي لمالك بن نبي و حاولت حقيقة أن أقدم قراءة معريفية لهذا المشروع الحضاري البنيوي.

وفي الأخير **الخاتمة** :التي كانت خلاصة لبحثي من خلال أهم التوصيات لبناء عالم ثقافي سليم يقف جنبا إلى جنب لسلم القيم, و الوقوف إلى جميع الرهانات الحضارية الجديدة التي لاتعترف إلاّ بالإنسان المثقف الواعي.

و إن من بين أهم الأسباب و الدواعي التي دفعتني إلى إنجازهذا البحث منها أني كلما كنت راجعا إلى الإقامة أثناء دراستي , التقيت بلاجئين أظنهم أنهم سوريين فأفكر دائما ماذا لو كان لدنيا عالم ثقافي يؤمن بالحرية و العدالة و الكرامة و الديمقراطية و ليست هذه مطالب المستجدات الجديدة بل هي طبيعة موجودة في ثقافتنا و خاصة ثقافتنا الإسلامية, ولكن تهاوننا و ضعفنا أرجع الثقافة الإسلامية المعاصرة إلى الضعف والتدهور.

و ما يزيدني حرقة على واقعنا و خاصة وضعنا الثقافي أني كنت أحمل في حقيبتي أفكار تحمل في طياتها ضرورة تغيير ما بأنفسنا و تغيير ما بواقعنا إن لم نقل بعالمنا كله, وهذه الأفكاربطبيعة الحال هي ابتكار من أصل و منهج فلسفي بحت, أمّا عن الأسباب الأخرى هي اهتمامي بالفكر العربي الذي يحتاج منا كباحثين العمل الكثير الذي يؤمن بالمراجعة و التعديل و النتقيب ساعين أن نجعل هذا الفكر و أقصد الفكر العربي يواكب التطورات الحالية.

أما عن الصعوبات التي واجهتني هي :تضارب المراجع في فهمها لمالك بن نبي و تناقضها أحياناًمع تشعب فكر مالك بن نبي بحيث مرّة يستبدل "**بكارل ماركس**" و "**هيغل**" وغيرهم من المفكرين الغربيين, ومرّة يستبدل "**بالرسول صلى الله عليه وسلم**" و "**عمر بن الخطاب**", مما يصعب علينا الضبط الدقيق للأفكار مالك بن نبي.

وفي الأخير أتمنى أن أكون قد وفقت في تقديم قراءة معريفية جديدة لفكر مالك بن نبي و اعتذر للقارىء عن كل حشوٍ أو نقص في عناصر كل فكرة من أفكار هذا البحث أو تجاهلت فكرة و تعمقت في الأخرى أو بدر مني تحريفا أو خطأ لقلة فهمي و ضعفي في التحليل و الله هم الموفق و هو من وراء القصد و هو أهدى السبيل.

فهرس
الموضوعات